الأمير الثائر شمس الدين آقوش البرنلي
المتغلب على حلب
بين المماليك والمغول
648 - 661هـ/1250 – 1262م

دكتور
وديع فتحي عبد الله
كلية الآداب
جامعة بنها

مقدمة

تتناول هذه الدراسة جانبا من حياة أمير مملوكي طموح اختلف المؤرخون حوله. والمملوك لغة هو العبد، وهو في العرف شخص يقر بالولاء لسيده. فإذا طمح هذا المملوك إلى السيادة، أو تصور نفسه سيدا، فثار وتمرد وتسيد قولا وفعلا، فلمن يكون ولاؤه؟ سؤال تجيب عليه سيرة حياة الأمير شمس الدين آقوش بن عبد اهلي العزيزي البرنلي. وإذا افترضنا أن المملوك يقر بولائه لسيد معين، فماذا يكون من شأنه إذا تعدد السادة أو تبدلوا؟ من الطبيعي أن تتعدد الولاءات في هذه الحالة وتتبدل بتعدد السادة وتبدلهم، فيذهب المملوك بولائه كل مذهب ويميل مع كل مائل، لا تحدوه في ذلك إلا مصلحته الشخصية، ومصلحته الشخصية فقط. وهذا ما كان من أمر شمس الدين البرنلي أيضا. والمماليك – في المصطلح التاريخي – لا يبتعدون عن ذلك التعريف كثيرا، وهو ما أثبته تاريخ حكام مصر والشام الذين أطلق عليهم المؤرخون هذه التسمية، والذين حكموا هذه المنطقة في الفترة الواقعة بين عامي 648هـ/1250م حين تولت حكم مصر شجر الدر[1]، و923هـ / 1517م عندما سيق طومان باي آخر سلطان مملوكي (922 – 923 هـ / 1516 – 1517) إلى باب زويلة حيث شنق في يوم الأحد [2]. ولم يقدر لشمس الدين البرنلي أن يكون واحدا من هؤلاء ، وإن طمح إلى ذلك أكثر من مرة كما سيتبين من ثنايا هذا البحث. غير أن الدور المهم الذي لعبه هذا المملوك الثائر في تاريخ الشام ومصرفي الفترة الفاصلة بين انهيار الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك البحرية، وقلة ما كتب عنه في المصادر الإسلامية قد حمل

---

1 – كانت شجر الدر تركية الجنس، أو أرمينية، اشتراها الملك الصالح نجم الدين أيوب (683–647 هـ/1240–1249 م)، المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1418هـ/ 1997، الجزء الأول، ص 459 . وذكر المؤرخ الإنجليزي لين بول أنها كانت جارية للخليفة المستعصم العباسي (640–656 هـ/ 1242–1258م) . انظر: سعيد عبد الفتاح عاشور : الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، د . ت.، ص 202؛ أحمد مختار العبادي : قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية،2006، ص119.

2 – شنق السلطان طومان باي عام 923هـ/1517م بعد هزيمته أمام العثمانيين في موقعة الريدانية، انظر :ابن زنبل الرمال: آخرة المماليك أو واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني – تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة، 1998، ص 250–252؛ ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور – تحقيق محمد مصطفى – القاهرة، 1960، ج 5، ص 173 – 177.

الباحث على أن يجعل منه الشخصية المحورية التي يدور حولها هذا البحث. ولقد حاول الباحث، ما وسعته المحاولة، تتبع سيرة حياة هذا الرجل ولم أشتاتها من المصادر والمراجع النزرة التي أشارت إليها، واجتهد، ما وسعه الاجتهاد، في أن يرسم من خلال هذه السيرة صورة لفترة من أهم فترات التاريخ الإسلامي. والمتأمل لنشاط البرنلي الذي تحدثت عنه المصادر التاريخية يلاحظ أن هذا الرجل عاش من حياته نحو ثلاثين سنة في بلاط الأيوبيين في حلب كواحد من "أكابر المماليك"، ولكنه ظل مع ذلك نسيا منسيا لم يأت من الأعمال ما يستحق أن تذكره المصادر. ثم إذا به ينشط فجأة ويظهر على مسرح الأحداث في الشرق الإسلامي ما بين مصر والشام لمدة ثلاث عشرة سنة، هي السنوات من 648 هـ / 1250م إلى 661 هـ / 1262م. غير أن هذه السنوات الثلاث العشرة لم تكن كلها نشاطا وحركة من جانب البرنلي. صحيح أنه قام في سنة 648 هـ / 1250م بدور حاسم في دعم قيام دولة المماليك البحرية وزوال نفوذ الأيوبيين في الشام نسبيا بانضمامه مع المماليك العزيزية إلى عز الدين أيبك[3] والتخلي عن مولاه الملك الناصر في العباسة، إلا أننا لا نسمع عنه شيئا في السنوات الخمس التالية لذلك والتي كان يقيم خلالها في مصر، حتى ظهر مرة أخرى فجأة في سنة 653 هـ / 1255م متآمرا على أيبك هاربا من بطشه إلى الناصر مرة أخرى. ويطويه النسيان مرة أخرى ولمدة خمس سنوات في سجون الناصر حتى يحدق الخطر المغولي بالشام فيخرجه الناصر من السجن في سنة 658 هـ / 1260م ويكرمه ويأمل في الاستعانة به في مواجهة الخطر المغولي الزاحف على المنطقة. وينشط البرنلي في السنوات الثلاث التالية، من سنة 658 هـ / 1260 إلى سنة 661 هـ / 1262، نشاطا محموما لتحقيق طموحاته في التملك مستغلا في ذلك كل الفرص التي سنحت له. فلا يبقي للباحث من الحيز الزمني الذي يستطيع أن يتحرك فيه باحثا ومنقبا في سيرة هذا الأمير الثائر إلا هذه السنوات الثلاث، وهي سنوات حافلة بالأحداث التي شارك فيها، فضلا عن دوره المهم في أحداث سنة 648 هـ / 1250م وسنة 653هـ / 1255م.

3- عز الدين أيبك الجاشنكير الصالحي التركماني، هو السلطان الملك المعز عز الدين أيبك بن عبد الله الصالحي النجمي المعروف بالتركماني، أول ملوك الترك بالديار المصرية، وأصله من مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب الذي اشتراه في حياة والده الملك الكامل محمد وتنقلت به الأحوال عنده، ولازم أستاذه الملك الصالح في الشرق حتى جعله جاشنكير وأعتقه ومازال به حتى رقاه أميرا، اختير سلطانا للبلاد، وأسس الدولة المملوكية. انظر: أبو المحاسن، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985، ج 3، ص 127، ج 7، ص 3-5

والجدير بالتسجيل أن أبا المحاسن بن تغري بردي أشار في ختام ترجمته للبرنلي إلى اختلاف المصادر الإسلامية بشأن الأمير شمس الدين آقوش البرنلي، إذ جاء في المنهل الصافي "... وقد اختلف المؤرخون في حكاية البرنلي، رحمه اه ف تعالى"[4].

التعريف بالأمير شمس الدين آقوش البرنلي

كان الأمير شمس الدين آقوش بن عبد اهلو العزيزي البرنلي من أكابر المماليك العزيزية وهم مماليك السلطان الملك العزيز غياث الدين محمد إبن السلطان الملك الظاهر غازي بن يوسف بن أيوب صاحب حلب (613هـ - 634هـ / 1216م - 1237م)[5]. ونشأ البرنلي في خدمة غياث الدين [6] ثم انتقل إلى خدمة ولده السلطان الناصر يوسف [7] (634-658هـ / 1237-1260م). ولا يعرف شئ عن نشأة هذا الأمير أكثر مما يدل عليه لقبه "العزيزي البرنلي". والمعروف أن المماليك كانوا ينتسبون غالبا إلى أساتذتهم أي سادتهم الذين اشتروهم بالمال من التجار، وأشرفوا على تربيتهم، كانتساب المماليك الظاهرية إلى السلطان الظاهر بيبرس، والمماليك الأشرفية إلى السلطان الأشرف، إلخ [8]. ولما كان هذا الأمير قد نشأ في خدمة السلطان

4- أبو المحاسن، المنهل ، ج 3، ص 21.

5 – السلطان الملك العزيز غياث الدين محمد ابن السلطان الملك الظاهر غازي بن يوسف بن أيوب صاحب حلب. وهو ابن بنت الملك العادل الكبير سيف الدين أبو بكر بن أيوب. لتفاصيل أكثر، انظر: ابن أيبك: الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب – تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور – القاهرة 1972م، ص 318–319؛ أبو المحاسن، المنهل، ج 6، ص 194 – ترجمة رقم 117.

6 – أبو المحاسن، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة – 12 جزءا – القاهرة، 1929–1956ج 3، ص 14 – 15؛ ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر – تحقيق أحمد حطيط – فيسبادن 1983م ، ص 39؛ بيبرس المنصوري: التحفة الملوكية في الدولة التركية – نشره عبد الحميد صالح – بيروت 1987– 27–28.

7- أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 15؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 549 معارف عامة – ج 29، ورقة 364 ترجمة الناصر يوسف.

8 – سعيد عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص 197 – 198.

الملك العزيز غياث الدين محمد صاحب حلب - كما سبق القول - فإن هذا يدل على أن هذا السلطان هو الذي اشتراه من التجار فنسب إليه. أما اللقب الآخر، "البرنلي" فقد ورد في المصادر في صور مختلفة فهو عند أبي المحاسن: آقوش بن عبد الله البُرُنْلي، والبرناو وكلاهما لغة من اللغة التركية معناهما المأنوف [9] وهو البرنلي عند ابن شداد [10]، ولكنه يرد عند ابن شداد أيضا في موضع آخر على شكل "بَرْلوا" [11]، وفي موضع ثالث "بُرلي" [12]، وهو "البرلي" أيضا عند المقريزي [13]، وأبي الفداء [14]، وشافع بن علي [15]، و"برلوا" عند ابن العبري [16]، و"ايلبرلك" عند ابن القوطي [17]، و(أغوش أزبرلو) عند رشيد الدين [18] وعلى حين يطلق عليه الحافظ شمس الدين الذهبي "نائب حلب آقوش التركي" [19] يكتفي السيوطي بالإشارة إلى "صاحب حلب

9- أبو المحاسن: الدليل الشافي على المنهل الصافي – تحقيق فهيم محمد شلتوت، طبع جامعة أم القرى، 1983م ، ص 144؛ أبو المحاسن، المنهل ج 3، ص 14.

10 - ابن شداد، ص 39.

11 - ابن شداد، ص 287.

12 – ابن شداد، ص 334.

13 – المقريزي، السلوك، ج 1، ص 539 ، التاريخ الكبير المقفى في تراجم أهل مصر والواردين إليها – ترجمة أقِش البرلي العزيزي، الأمير شمس الدين – مخطوط ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية – رقم 510.

14- أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، 4 أجزاء، الآستانة، 1286هـ، ج 3، ص 214.

15 – شافع بن علي (ت 723هـ/1332م)، كتاب حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية. تحقيق عبد العزيز الخويطر – الرياض 1979م – ص 46.

16- ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، بيروت، 1890، ص 284.

17 – ابن الفوطي، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة – نشر مصطفى جواد – بغداد – 1932/1351، ص 167.

18- رشيد الدين: جامع التواريخ، المجلد الثاني، نقله عن الفارسية فؤاد عبد المعطي الصياد وآخرون، القاهرة 1960م، ج1، ص 328.

19 - الذهبي، دول الإسلام، دار إحياء التراث الإسلامي بدولة قطر الجزء الأول والثاني،1988، الجزء الثاني، ص 165.

الأمير شمس الدين آقوش" [20]. وذكر أحمد مختار العبادي أن لفظ البرلي محرف عن الكلمة التركية برنولو ومعناها ذو الأنف الكبير أو الأنف الأحمر [21].هذا عن اسم الأمير، أما فيما يتعلق بمولده وظروف نشأته ومسار حياته من مولده حتى بروز اسمه فجأة في سنة 648هـ / 1250م، عندما خرج مع الناصر صاحب حلب للاستيلاء على مصر، فإننا لا نجد في المصادر أي إشارة إلى تاريخ ميلاد شمس الدين آقوش البرنلي، أو إلى عمره عندما دخل في خدمة العزيز الذي امتد حكمه لحلب لمدة 21 سنة (613-634هـ / 1216م - 1237م)، كما لا ترد في المصادر أي إشارة إلى الظروف والملابسات التي جعلته من "أكابر" مماليك هذا الملك على حد وصف ابن تغري بردي له، فضلا عن عدم الإشارة في أي من المصادر إلى زمن حصوله على رتبة "الأمير" [22]، أو أسباب حصوله على هذا اللقب، وطبيعة هذه الإمارة[23].

كما سكتت المصادر عن نشاط هذا المملوك طوال عهد الملك العزيز، وحتى بعد انتقاله بعد وفاة العزيز غياث الدين إلى خدمة ابنه الملك الناصر، والذي امتد حكمه لمدة 24 سنة (634-658هـ / 1237-1260م). فلا يعرف عنه شئ في السنوات الأربع عشرة الأولى من حكم الناصر، حتى سنة 648هـ / 1250م،

20- السيوطي، تاريخ الخلفاء، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، د. ت.، ص 439.

21- العبادي، قيام دولة المماليك ، ص 170 – 171 حاشية 6.

22 – رغم اصطلاح المؤرخين على تقسيم أمراء المماليك إلى طبقات ذات مراتب عسكرية، وتعيينهم للوظائف المرتبطة بكل مرتبة ومقادير الإقطاعات المخصصة لكل منها، فإن المصادرالمملوكية لا تعين عدد السنوات التي يقضيها المملوك لارتقائه من الرتبة إلى أخرى. انظر السيد الباز العريني، المماليك، دار النهضة العربية، بيروت – لبنان، د. ت.، ص 145.

23- كان الأمراء يكونون أرفع الفئات العسكرية في عصر المماليك، وقد استخدم لفظ الأمير في زمن الدولة الفاطمية للدلالة على طبقة أو مرتبة معينة يصل إليها المقربون من رجال الدولة، ثم انتقل اللفظ إلى الدولة الأيوبية وورثته دولة المماليك ضمن ما ورثت من أنظمة الدولة الأيوبية. انظر محاسن الوقاد، وظيفة "أمير مجلس" ودورها في عصر دولة سلاطين المماليك في المرحلة من عام 648 – 923 هـ / 1250 – 1517م – بحث منشور في: مصر في العصر المملوكي – دراسات حضارية، مصر العربية للنشر والتوزيع،2006، ص 100-101.

عندما استولى على دمشق، ثم سار للاستيلاء على مصر أيضا احتجاجا على تولي المماليك حكم مصر بعد وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب[24].

ففي هذا العام، وفي هذا العام فقط برز اسم شمس الدين آقوش البرنلي بصفته واحدا ممن ساروا في ركاب البيت الأيوبي زحفا على مصر .

وما بين خروج الأمير شمس الدين آقوش بن عبد اه ا العزيزي البرنلي مع السلطان الناصر يوسف الأيوبي للاستيلاء على مصر في سنة 648هـ / 1250م، واعتقال السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقداري له في سنة 661هـ / 1263م[25] في قلعة الجبل حيث مات بعد سبع سنوات [26]، عاش البرنلي ثلاثة عشر عاما كان نشاطه خلالها مثار جدل بين الناس وخلاف بين المؤرخين.

24- السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد، ملك الديار المصرية في الخامس والعشرين من ذي الحجة سنة 763هـ وولد بالقاهرة سنة 603هـ وبها نشأ، وهو الذي أنشأ المماليك الأتراك وأمرهم بديار مصر. انظر: أبو المحاسن، المنهل، ج 6، ص 319.

25- السلطان الظاهر ركن الدين أبو الفتح بيبرس الصالحي النجمي البندقداري التركي (ت 676 هـ / 1277م)، سلطان الديار المصرية والبلاد الشامية والأقطار الحجازية والثغور الإسلامية. من مواليد بلاد القفجاق – في جنوب روسيا – وأغار التتار علي هذه البلاد وأخذ بيبرس ضمن الأسرى، وعرض على الملك المنصور صاحب حماة. وكان من عادة المنصور أن يستشير والدته عند شراء الرقيق، فأحضر بيبرس مع أخر ورأتهما والدة المنصور من وراء الستر فأمرت بشراء زميله ولكنها قالت للمنصور عن بيبرس: "هذا الأسمر لا يكون بينك وبينه معاملة، فإن في عينيه شرا لائحا". وكان الأمير علاء الدين أيديكن البندقدار معتقلا لدى المنصور وسمع بقصة المملوكين فاشتراهما وهو في معتقله. وعندما أفرج عن هذا الأمير انتقل بيبرس معه إلى مصر، وهناك صادف أن غضب الملك الصالح نجم الدين أيوب على علاء الدين البندقدار فاعتقله وصادر أمواله ومواليه وكان منهم بيبرس. وعلا نجم بيبرس بسرعة عند الملك الصالح وترقى في خدمته واستفاد من أخلاقه.وأصبح قائدا لفرقة من المماليك. وبعد موت الملك الصالح انتقل بيبرس إلى خدمة المعظم توران شاه ، وشارك المماليك البحرية في اغتيال هذا الملك وتولية شجر الدر عرش مصر. وفي وقت لاحق خرج مع قطز لقتال التتار ثم قتل قطز وبايعه أمراء المماليك سلطانا. انظر: أبو المحاسن، المنهل: ج 3، ص 447؛ أبو المحاسن، النجوم، ج 7 ، ص 94 – 95؛ المقريزي، السلوك، ج 1، ص 520؛ وانظر أيضا: سعيد عبد الفتاح عاشور، الظاهر

المشهد السياسي إبان الفترة موضوع البحث

ظهر اسم الأمير شمس الدين آقوش البرنلي لأول مرة عندما سار مع عدد من أمراء البيت الأيوبي في ركاب السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف الصغير للاستيلاء على مصر، وكان ذلك في منتصف رمضان من سنة 648هـ / 11 ديسمبر 1250. وكانت شجر الدر قد بويعت في 10 صفر سنة 648هـ / 14 مايو 1250م، وتنازلت عن العرش اليوم الأخير من ربيع الآخر من نفس العام (30 يوليو 1250م) لزوجها المعز عز الدين أيبك، أي قبل تحرك الناصر صاحب حلب بأكثر من أربعة أشهر. فعندما كان الناصر في طريقه إلى مصر كان الحاكم الفعلي لمصر هو المعز أيبك، زوج شجر الدر. وكان أمراء المماليك البحرية قد اتفقوا على إقامة عز الدين أيبك[27] الجاشنكير[28] التركماني[29] الصالحي ملكا بعد اعتراض الخليفة العباسي على

بيبرس ، الهيئة المصرية العامة للكتاب 2001، ص 22 – 23. هذا والمعروف أن البندقدار هو الذي يحمل جراوة البندق – حبات من طين أو رصاص– خلف السلطان أو الأمير، وهو مركب من لفظين فارسيين بندق، والآخر دار، ومعناها ممسك، انظر: القلقشندي، صبح الأعشى ، ج 5، ص 458–495.

26– أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 21.

27 – "أيبك" اسم مركب من "أي" ومعناه القمر ، و"بك" أي "أمير". والملاحظ أن أسماء معظم سلاطين المماليك وكذا أمراء سلطنتهم عبارة عن أسماء أشياء أو حيوانات في اللغات التركية والفارسية والتترية. فبيبرس معناه "الأمير فهد"، وقلاوون معناه "البطة" وطوغان معناه "الصقر"، وبكتمر معناه "الأمير حديد". انظر: المقريزي، السلوك،ج 1، ص 468، حاشية رقم 2.

28 – أصل المصطلح "ألجاش نكر" وترسم متصرفة "الجاشنكير" وهو المكلف بتذوق المأكولات والمشروبات قبل السلطان أو الأمير خوفا من أن يدس عليه فيه سم ونحوه. والمصطلح مكون من لفظين فارسيين: جاشنا ومعناه الذوق، وكير المتعاطي لذلك. انظر: القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا،14 جزء، القاهرة، 1913–1919م)، ج 5، ص 460.

29 – أولاد "التركماني" هم بنو رسول الذين استقلوا بالعين. وأصل نسبتهم إلى التركمان، مع أنهم عرب غساسنة. أتوا من بلاد التركمان إلى بغداد في خلافة الخليفة العباسي المسترشد (555–566هـ/1160–1170م). للتفاصيل انظر: المقريزي، السلوك، ج1، ق 2، ص 368، حاشية 30– انظر أيضا: أحمد مختار العبادي: في التاريخ الأيوبي والمملوكي – الإسكندرية 1992م – ص 115، ج 1.

تولية شجر الدر. كما لجأ المماليك إلى إقامة طفا من البيت الأيوبي هو موسى حفيد الملك الكامل ليكون ملكا على مصر مع عز الدين أيبك للتهدئة من سورة غضب الأيوبيين وطمأنتهم إلى استمرار الحكم الأيوبي في مصر. وقد ولقب هذا الملك الطفل "بالملك الأشرف"[30] أما الأمر والنهي فكانا في قبضة الملك المعز أيبك، أو على حد تعبير المقريزي "إلا أن الأشرف ليس له سوى الاسم في الشركة لا غير ذلك، وجميع الأمور بيد المعز أيبك"[31] وتم ذلك في الثالث من جمادى الأولى من عام 648هـ / 3 أغسطس 1250م[32]. والواقع أن مجئ شمس الدين البرنلي إلى مصر في هذا الوقت جاء في إطار تحرك الملك الناصر الأيوبي بجيوشه للاستيلاء على مصر واستردادها من قبضة الأيوبيين[33].فقد تكتل ملوك بني أيوب في الشام للوقوف في وجه المماليك في مصر، بل ولغزوها واسترداد ملكها للأيوبيين. وكتبت فئة من المماليك في دمشق – التي كان يحكمها جمال الدين بن يغمور نائبا عن توران شاه – تُدعى القيمرية إلى الناصر للحضور إلى دمشق لتسليمها له فاستجاب الناصر وتسلم دمشق في سهولة [34]

---

30 حامد غنيم، الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1973، ج 3 – ص 13.

31 المقريزي، السلوك ج 1 ص 464.

32 المقريزي، السلوك ج 1 ص 464.

33 فور وفاة الملك الصالح أيوب بادرت زوجته شجر الدر باستدعاء ابنه توران شاه من حصن كيفا لاعتلاء السلطنة بعد أبيه، غير أن توتر العلاقات بين توران شاه والمماليك البحرية ورغبته في التخلص منهم انتهي بقتلهم إياه. و إذ لم يجد قتلة توران شاه من المماليك بينهم من يصلح للسلطنة، أجمعوا على تولية شجر الدر ذلك المنصب، ولقد أجمع المؤرخون على أن شجر الدر كانت "خيرة، دينة، رئيسة عظيمة في النفوس". وحيث أن العادة قد جرت على أن يكون لسلطان مصر منذ أيام صلاح الدين هيمنة على بقية الملوك والأمراء في بلاد الشام، فقد بادرت شجر الدر بإرسال الخطيب أصيل الدين محمد لاستحلاف أمراء الشام على الولاء للسلطانة الجديدة ولكن بني أيوب كانوا يرون أنهم أصحاب الحق الشرعي في حكم مصر والشام بوصفهم سلالة صلاح الدين فاشتعلت نار الثورة في الشام ضد سلطنة المماليك الوليدة في مصر وامتنعوا عن الحلف لها. انظر: العبادي، قيام دولة المماليك، ص 105؛ سعيد عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص 201–202 و 204.

34 سعيد عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص 205.

ومنها خرج – كما سبق القول في منتصف رمضان 648هـ / 11 ديسمبر 1250م للاستيلاء على مصر. غير أن ما جرى في مصر في سنة 648هـ/ 1250م من أحداث جسام لا يمثل إلا جانبا واحدا من اللوحة المتعددة الجوانب التي رسمتها يد القدر للمشرق الإسلامي في ذلك العصر. ولعلنا لا نبالغ إذا اعتبرنا ما جرى في مصر في ذلك العام لآخر ملوك بني أيوب بها وهو توران شاه، إرهاصا لما سيكون من شأن باقي ملوك هذه الأسرة التي كان نجمها يسير إلى زوال. ولا يكتمل الحديث عن الدور الذي قام به الأمير شمس الدين آقوش البرنلي الفترة من سنة 648 هت / 1250م إلى سنة 661هـ / 1263م بدون الحديث عن القوى السياسية المؤثرة في الشرق الإسلامي في تلك الفترة. وتمثلت هذه القوى فى أمراء بني أيوب الذين تقاسموا مملكة صلاح الدين الأيوبي بعد وفاته في 589 هـ / 1193م ، وظلوا يحكمون بعض بلدان المنطقة حتى سنة 648 هـ /1250م، والمغول، والصليبيين. ففي مصر، كان الأشرف موسى الأيوبي (648-650هـ / 1250 – 1252م) يحكم البلاد إسميا وعمره ست سنوات، بينما كان المـلك المعز أيبك ، زوج شجر الدر (648-655 هـ / 1250 – 1257م)، يقوم بتدبير أمور الدولة [35]، انظر: المقريزي، السلوك، ج 1، ص 464. وفي حلب كان الناصر صلاح الدين يوسف هو آخر الملوك الأيوبيين الذين حكموا حلب وكان يحكم أيضا دمشق وبعلبك. وفي حمص كان الأشرف موسى الثاني بن إبراهيم (643 – 661 هـ / 1245- 1262م) هو آخر الأيوبيين الذين حكموا المدينة. وفي الكرك كان المغيث فخر الدين عمر بن العادل (637 – 661 هـ / 1239 – 1263م) آخر من حكم هذه المدينة من بني أيوب. وفي دِيار بكر (ميافارقين وجبل سنجار) كان الملك الكامل الثاني ناصر الدين (642 – 658 هـ / 1244 – 1260م) هو آخر من حكم المنطقة من سلالة صلاح الدين. وفي حماة كان المنصور الثاني محمد (642 – 683 هـ / 1244 – 1284م) يمثل استثناء لهذه القاعدة، فتسلم حكم المدينة من بعده أيوبي آخر استمر في الحكم من 683 – 698 هـ / 1284 – 1298م، هو المظفر الثالث محمود [36]. وأما المغول الذين كان نجمهم آخذا في الصعود مع تحركهم من آسيا غربا باتجاه أراضي الخلافة العباسية، فقد شكل ظهورهم على مسرح الأحداث منذ النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي تهديدا أثبتت الأيام خطورته على أحوال العالم الإسلامي في شرق البحر

---

[35] المقريزي، السلوك، ج1، ص 464.

[36] عن حكم ملوك الأيوبيين في مصر والشام انظر: كليفورد بوزورث، الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة حسين على اللبودي، مؤسسة الشراع العربي، الكويت 1994، ص 94–96.

المتوسط .وكان اجتياحهم لكل ما صادفهم من بلدان في زحفهم غربا [37] سببا في بث الرعب في قلوب آخر أمراء البيت الأيوبي في الشرق فمالأهم من هؤلاء الأمراء من مالأهم وفر أمامهم من فر. وفيما يتعلق بالصليبيين، الذين كانوا قد استقروا في بعض مدن الشام منذ الحملات الصليبية الأولى، فقد صادف عام 648 هـ / 1250م وجود عدد من الملوك والأمراء الصليبيين الضعفاء الذين كانوا يفتقرون إلى زعامة قوية والذين استمرت الحروب بينهم على نحو أضعف من تأثير هذه الإمارات على مجرى الأحداث في الشرق الإسلامي[38] حتى مجيء لويس التاسع بحملته الصليبية السابعة في سنة 647 هـ / 1249م[39] التي هزمت على يد المماليك في مصر[40]

---

[37] كان جنكيز خان (603–624 هـ/1206–1227م) أول خانات المغول الكبار في منغوليا، فقد بايعه شيوخ رؤساء المغول في 603هـ/1206م) رئيسا أعلى لجميع الأقوام المغولية. وكانت واقعة "أوترار" في سنة 615 هـ/1218م هي السبب الذي عجل بغزو المغول للعالم الإسلامي. فقد قتل الوالي الخوارزمي في أوترار رسل جنكيز خان إلى الخوارزمشاه وذبح قافلة كاملة من التجار المسلمين كانوا برفقة الرسل. فقام جنكيز خان في 616–617 هـ/ 1219–1220م بغزو بلاد ما وراء النهر، وأرسل ابنه تولوي على رأس حملة إلى خراسان لتعقب جلال الدين منكبرتي ، آخر الخوارزمشاهات (617–628هـ/1220–1231م). وواصل ابنا جنكيزخان الآخران، جوشي ، وجغتاي، تقدمهما في الحوض الأدنى لنهر سيحون وإقليم خوارزم حيث دمرا الموطن الأصلي للشاهات. انظر : كليفورد بوزورث، الأسرات الحاكمة، ص 199–200 . وبعد وفاة جنكيز خان واصل خلفاؤه زحفهم في البلاد الإسلامية. انظر: فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، دار النهضة العربية، بيروت، 1980، الجزء الأول، ص 179.

[38] في سنة 648 هـ / 1250م، كان هيو الأول لوزجران ملكا لمملكة بيت المقدس (1246–1253م)، وبوهمند الخامس أميرا لأنطاكية وكونت على طرابلس (1233–1251م)، ويوحنا الثاني إبلين سيدا على إقطاع بيروت (1247–1264م) وكونتا على يافا(1247–1266م)، وجوليان سيدا على إقطاع صيدا (1247–1260م)، وفيليب مونفورت سيدا على إقطاع صور وتبنين (1240–1270م)، ويوحنا ألبيان سيدا على إقطاع قيسارية (1249–1264م). عن الملوك والأمراء الصليبيين في مدن الشام في سنة 648 هـ / 1250م، انظر ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، بيروت،الطبعة الثالثة، الجزء الثالث، 1993، ص 841–846.

[39] انظر سعيد عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص 133– 138.

[40] عن تفاصيل هذه الحملة انظر :ستيفن رنسيمان، تاريخ الجروب الصليبية – ص 453 – 472.

غير أن المشرق الإسلامي لم يقدر له أن يجني ثمار الانتصار على الصليبيين، رغم الدور الحاسم الذي لعبه هذا الانتصار في درء خطر الغزو الأوروبي للشرق الإسلامي، إذ أن الفضل في هذا الانتصار إنما يعود إلى شجر الدر ، أول من تسلطن من المماليك البحرية بمصر. وكان ظهور قوة المماليك على هذا النحو سببا في إثارة غضب آخر خلفاء الأيوبيين الذين كانوا يحكمون معظم بلدان المنطقة، وخوفهم من زوال سلطانهم في مصر، فخرج الناصر صاحب حلب ودمشق قاصدا الاستيلاء على مصر كما سبق القول لاسترداد ملك الأيوبيين. ولكن هزيمته أمام المعز أيبك في عام 648 هـ / 1250م رجحت كفة المماليك الذين شرعوا في توطيد أركان دولتهم الوليدة بعد القضاء على بعض الثورات الداخلية والحركات الانفصالية الخارجية التي صاحبت قيام هذه الدولة في سنواتها الأولى.

وفي مقابل غياب الدور الأيوبي في مواجهة الخطر المغولي الداهم، برز دور المماليك البحرية في مصر[41]، وإذا بسيف الدين قطز، ومن معه من المماليك ومن انضموا إليه - وكان في عدادهم شمس الدين البرنلي - يحول انتصارات المغول الكاسحة إلى هزيمة ساحقة في عين جالوت في 25 رمضان سنة 658هـ /3 سبتمبر1260م أوقفت تقدمهم في الشرق الإسلامي تماما وأرست دعائم الدولة المملوكية.

ومجمل القول أن المشهد السياسي والعسكري في الشرق الإسلامي في عام 648هـ / 1250م كان أشبه بلوحة من الفسيفساء تضم عددا كبيرا من الممالك الأيوبية المتناحرة، وعددا آخر من الإمارات والإقطاعات الصليبية المتصارعة، وملك صليبي كبير مني بهزيمة كبيرة أمام مماليك مصر ووقع في أسرهم، وسلطنة مملوكية وليدة في مصر ، وخطر مغولي قادم من الشرق ليبتلع المنطقة . وكان بزوغ نجم دولة المماليك في مصر عاملا حاسما في توجيه دفة الأحداث في المنطقة في السنوات التالية. وفي هذه الظروف برز اسم الأمير شمس الدين بن عبد الله آقوش العزيزي البرنلي عندما خرج مع السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف قاصدا استرداد مصر من المماليك البحرية وإعادتها إلى حظيرة الدولة الأيوبية، بعد أن استولى على دمشق في إطار تكتل بني ملوك أيوب في الشام للوقوف في وجه المماليك في مصر ، بل لغزو مصر ذاتها واسترداد ملكها للأيوبيين، وذلك احتجاجا على تولي شجر الدر زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب حكم مصر بعد وفاة هذا الأخير. وخرج المعز أيبك إلى الصالحية [42] لقتال الناصر الذي وصل

---

[41] حامد غنيم، الجبهة الاسلامية ، ج 3، ص 29.

[42] االمقريزي، السلوك، ج1، ص 467.

على رأس عساكره إلى كُراع[43]، وهي قريبة من العباسة[44]. واندلع القتال بين بقايا البيت الأيوبي والمماليك البحرية "فانكسر الملك الناصر، وخامر آقوش البرنلي هذا وجماعة من العزيزية"[45]. وفروا بأطلابهم[46] إلى الملك المعز والبحرية[47] وكان ذلك في العاشر من ذي القعدة سنة 648 هـ / 2 فبراير 1251م.

---

[43] تقع "كُراع" بين العباسة والسديد قريبا من الخشبي في الرمل، ويعرف الخشبي اليوم بالسعيدية، فيما بين بلبيس والصالحية ، المقريزي، السلوك، ج1، ص 467 حاشية 2 و 3. وانظر أيضا: الملك جرجس: أخبار الأيوبيين – مكتبة الثقافة الدينية د. ت. ص 40؛ العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، مخطوط بمكتبة دار الكتب المصرية رقم 1584 ، ج 1، ص 49.

[44] العباسة هي أول قرية يلقاها القادم من الشام إلى مصر بمركز الزقازيق بالشرقية. وسميت بهذا الاسم نسبة إلى "العباسة" بنت احمد بن طولون، وكانت قد خرجت على قطر الندى بنت أخيها لما تزوجت من الخليفة المعتقد بالله العباسي، وهناك، في ذلك المكان، ضربت الخيام قبل مسير قطر الندى إلى بغداد، فسميت القرية باسم العباسة، خاصة وأنها أقامت في خيمة في نفس المكان. انظر :أبو المحاسن، النجوم، ج 8، ص 141 ، حاشية 1؛ المقريزي، السلوك، ج 1، ص 467. وعن تقسيمات الجيشين في تلك المعركة انظر: المقريزي، السلوك، ج 1، ص 374 – 375. انظر أيضا: أبو المحاسن، النجوم، ج 7، ص 8.

[45] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 15. وقد انفرد أبو المحاسن دون غيره من المصادر بذكر دور آقوش البرنلي في معركة العباسة.

[46] الأطلاب مفردها "طلب" وهي وحدة عسكرية صغيرة قد تضم أربعمائة جندي، يرأسها أمير. انظر: المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، بولاق، 1270 هـ/1853م، ج 1، ص 138؛ ابن إياس، ج 3، ص 24 – 25.

[47] المقريزي، السلوك، ج1 ص 468؛ أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 15؛ ابن الوردي، تتمة المختصر في أخبار البشر – ويعرف بتاريخ ابن الوردي – 2 ج ، القاهرة، 1258هـ / 1868م، ج 2، ص 180 – 181. و"العزيزية" طائفة من المماليك تنسب إلى السلطان الملك العزيز محمد بن غازي صاحب حلب. انظر: أبو المحاسن، النجوم، ج 6، ص 297؛ المقريزي، السلوك، ج 1، ق 2، ص374. العيني، ج 1، ص40، حاشية 2 . وعن خيانة العزيزية أورد العيني "... فمال من كان مع الناصر من مماليك أبيه العزيز إلى التركي الذي بمصر للجنسية" انظر: عقد الجمان، ج 1، ص40؛ أبو الفدا، المختصر، ج 3، ص184.

وأورد النويري أن السبب في انضمام الأمير شمس الدين آقوش البرنلي والعزيزية إلى جيش المعز هو أن سلطانهم الملك الناصر "أضافهم يوم الحرب إلى طلب الأمير شمس الدين لؤلؤ – أتابكه – فعز ذلك عليهم"[48]. ودبت الغيرة في نفوسهم، فقد كانت الغيرة من السمات الأساسية في شخصية المماليك. أما المقريزي، فقد أرجع السبب في انضمام العزيزية إلى المعز أيبك إلى علة الجنسية لكونهم أتراكا كمماليك المعز، ولكراهتهم في الأمير شمس الدين لؤلؤ مدير المملكة [49]. وعقب تلك الهزيمة، عاد الناصر يوسف مع البقية من جيشه إلى بلاد الشام[50].

وهكذا انتقل ولاء شمس الدين آقوش البرنلي، على رأس جماعة العزيزية من الأيوبيين في الشام إلى المماليك في مصر. وقد أوضح المقريزي بجلاء أن الفضل في انتصار المماليك في معركة العباسة على الناصر يوسف يعود في الأساس إلى فارس الدين أقطاي العزيزي[51]، أي المنتمي إلى العزيزية إذ أورد: "... ووقف الناصر في جمع من العزيزية وغيرهم تحت سناجقه وقد اطمأن، فخرج عليهم المعز – ومعه الفارس أقطاي – في ثلثمائة من البحرية، وقرب منه. فخامر عدة ممن كان مع الناصر عليه، ومالوا مع المعز والبحرية"[52].وعقب خيانة المماليك العزيزية للناصر يوسف توطدت العلاقة بين أقطاي وآقوش البرنلي[53]. ووصلت هذه العلاقة إلى مداها حين ناصر آقوش والعزيزية أقطاي في ثورته على المعز أيبك ذلك أن انتصار أقطاي على الناصر يوسف زاد من قوة أقطاي ومكانته العسكرية ونفوذه في مواجهة السلطان المعز أيبك الذي بدأت تساوره المخاوف من ازدياد أتباع ونفوذ غريمه أقطاي فبدأ يحتاط لمواجهة مقبلة فأسس طائفة المماليك المعزية، وعين قطز

---

[48] النويري: ج 29، ص 421.

[49] المقريزي، السلوك، ج 1، ص 467.

[50] المقريزي، السلوك، ج، ص 469؛ المكين جرجس، ص 40؛ العيني ج 1، ص 42 – 3؛ أبو الفدا، المختصر، ج 3، ص 185.

[51] فارس الدين أقطاي العزيزي، ت 652هـ / 1254م، قائد المماليك البحرية التي كانت القوة الضاربة للجيش، ارتفع شأنه في أعقاب موقعة المنصورة، وقمعه عصيان الصعيد، وصار منافسا لعز الدين ايبك. انظر: أبو المحاسن، المنهل، ج 2، ص 502.

[52] المقريزي، السلوك، ج1، ق 2، ص 468.

[53] في النويري أَقُش البرلي. انظر: النويري: ج 29، ص 421.

المعزي [54] نائبا للسلطنة [55]، كما أخلى جزيرة الروضة من المماليك البحرية المناصرين لغريمه أقطاي[56]. وعزز مكانته بأن عزل شريكه الإسمي في الحكم الملك الأيوبي الطفل الأشرف موسى[57] وانفرد بالحكم. وفي ظل تلك المواجهة المكشوفة بين المعز وأقطاي، ناصر شمس الدين آقوش البرنلي وجماعة العزيزية الأمير أقطاي، ودبروا مؤامرة للقبض على المعز [58] والفتك به [59]. إلا أن المعز علم بتلك المؤامرة، واستعد لقمعها[60]، فانقض أتباعه بغتة على معسكر العزيزية في العباسة[61] وتم القبض

---

[54] كان اسم "قطز" الأصلي هو "محمود بن ممدود"، وكان قريب "ابن أخت" السلطان جلال الدين خوارزمشاه، وقد أسر في حروب التتار، وبيع بدمشق للسلطان الملك المعز أيبك. انظر: المقريزي، السلوك، ج 1، ق 2، ص 417، حاشية 2. و"المماليك المعزية" نسبة إلى السلطان المعز أيبك التركماني. العادي: قيام دولة المماليك، ص 138.

[55] نائب السلطنة ويسمى أيضا النائب الكافل وكافل الممالك الإسلامية، كان يحكم في كل ما يحكم فيه السلطان، ويعلم في التقاليد والتواقيع والمناشير وغير ذلك مما يعلم عليه السلطان. وهناك نواب كانوا أقل درجة بل وأشبه بالحكام المحليين، مهمته الاختصاص والاهتمام بالأمور المتعلقة بحدود نيابته. القلقشندي صبح الأعشى ج 4، ص 16. انظر: القلقشندي، صبح الأعشى ج 4، ص 16.

[56] وصل فارس الدين أقطاي زعيم المماليك البحرية إلى قمة المجد بعد تمكنه من قمع ثورة الأعراب ضد أيبك حتى كاد أن يصبح ملكا متوجا. فتوجس أيبك خيفة منه ومن المماليك البحرية خشداشيته. وبالفعل أخذ أقطاي يرنو علانية نحو عرش السلطنة. وتحقيقا لغايته تلك، تزوج بأميرة أيوبية هي ابنة الملك المظفر تقي الدين صاحب حماة حتى تضفي عليه تلك الزيجة الشرعية، ولم يكتف بذلك، بل تآمر لقتل أيبك وطلب منه الإقامة مع عروسه – التي تجري في عروقها الدماء الملكية – لكونها من الأسرة الأيوبية – في قلعة الجبل. لذا صمم أيبك على قتله، فتم له ذلك يوم الأربعاء 3 شعبان سنة 652هـ / 1254م. المقاصري انظر: المقريزي، السلوك، ج 1، ص 483؛ أبو المحاسن، النجوم، ج 7، ص 11 – 12؛ بيبرس المنصوري: التحفة الملوكية، ص 34 – 36.

[57] ابن الوردي ج 2، ص187.

[58] أبو الفدا، المختصر، ج 3، ص 190.

[59] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 15.

[60] أبو الفدا، المختصر، ج 3، ص 190.

[61] أبو الفدا، المختصر، ج 3، ص 190؛ أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 15.

على بعضهم وهرب البعض الآخر. وكان آقوش البرنلي ممن هرب [62]. وأورد أبو المحاسن قصة هرب البرنلي تحت أحداث سنة 653 هـ / 1255م[63] . وكانت هذه المؤامرة، والملابسات التي أحاطت بها، والنتائج التي أسفرت عنها هي حلقة في سلسلة التقلبات والتحولات التي شكلت سيرة حياة الأمير شمس الدين آقوش البرنلي. ولكن لماذا انحاز البرنلي إلى المعز أيبك في هذه الموقعة؟ إن هذا السؤال يفتح الباب أما احتمالات ثلاثة هي:

- أن آقوش انحاز إلى المعز أيبك لعلة النسب كما ذكر المقريزي
- أنه انحاز إليه لأنه توسم النصر في جيش المماليك
- أنه فعل ذلك لسبب آخر في دخيلة نفسه، كطموح شخصي إلى أن يكون له دور في دولة المماليك الوليدة، أو حتى طموح إلى الملك، وهو الذي كان من "أكابر" مماليك العزيز غياث الدين كما وصفه صاحب المنهل؟[64]

إن الأحداث التي شهدها أو شارك فيها البرنلي منذ هذه الموقعة بين المماليك والأيوبيين في سنة 648 هـ / 1250م وحتى اعتقال بيبرس له في 661 هـ / 1262م، على النحو الذي سيتضح من ثنايا هذا البحث، ترجح كفة الاحتمال الثالث، فقد كان الطموح الشخصي والتطلع إلى التملك والسلطان هو المحرك الأول وراء جميع أعمال شمس الدين آقوش البرنلي في كل ما أتى من أفعال.

شارك آقوش البرنلي إذن في التآمر على المعز أيبك، وانكشفت المؤامرة، وفر هاربا مع من فروا. فإلى أين يتجه وهو مملوك هارب لا حول له ولا قوة إلا بسند من سلطان يدخل في رجاله وينضوي تحت لوائه؟ من الواضح أنه لم يكن أمامه إلا العودة إلى الملك الناصر يوسف صاحب حلب فعاد إليه [65] متناسيا خيانته له في معركة العباسة. ولا تذكر المصادر شيئا عما دار بينه وبين الناصر من حديث، إن كان حديث

---

[62] والملاحظ أن أبا المحاسن انفرد دون غيره من المصادر الإسلامية بذكر أن آقوش كان من بين الفارين. فهو يقول في المنهل ، ج 3، ص 15 : "....فكان آقوش البرنلي ممن هرب"، ثم يصفه في النجوم، ج 7، ص34، بأنه كبيرهم (أي كبير الهاربين) : ".... فهربوا على حمية، وكبيرهم آقوش البرنلي".

[63] أبو المحاسن، النجوم، ج 7، ص 34.

[64] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 14.

[65] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 15.

قد دار بينهما فعلا ولكننا نعرف أنه ما كان من الناصر في هذه الظروف إلا أن ألقى القبض على آقوش واعتقله في قلعة عجلون[66].

ولكن هذا الاعتقال كان حلقة أخرى في سلسلة تقلب الولاء، أو هو في هذا المقام تقلب الزمن، التي تشكلت منها حياة آقوش البرنلي. وإذا كان تولي شجر الدر حكم مصر هو الشرارة التي أشعلت نار الفتنة بين الأيوبيين في الشام والمماليك في مصر، فكانت هذه الفتنة سببا في ظهور البرنلي على مسرح الأحداث، مناصرا للناصر ثم خائنا له فقد اندلعت في الشرق الإسلامي آنئذ شرارة فتنة أخرى أكثر خطورة وأجل شأنا كانت أيضا سببا في ظهور البرنلي كأمير مقاتل مرة أخرى على مسرح الأحداث، ألا وهي ظهور التتار على مسرح التاريخ ونزوحهم غربا ووصولهم إلى أبواب بغداد. وكان وقع ذلك على المسلمين رهيبا، خاصة بعد أن تمكن هولاكو من إسقاط بغداد دار الخلافة العباسية. وبينما كان التتار يستعدون لاجتياح بلاد الشام إذ بالناصر يسلك سلوكا يقترب من الخيانة للإسلام والمسلمين إن لم يكن الخيانة عينها. فقد حاول هذا السلطان الأيوبي المنحدر من صلب صلاح الدين الأيوبي (564 - 589 هـ / 1169 - 1193م) قاهر الصليبيين في حطين، أن ينتهز فرصة اجتياح التتار للمنطقة لتحقيق أطماعه لإعادة الحكم الأيوبي وبسط سيادته على مصر والشام.

ومن منطلق هذه السياسة التي تتسم بضيق الأفق، أوفد الناصر ابنه الملك العزيز إلى هولاكو طالبا منه نجدته[67] ليستولي على مصر من المماليك ويعيدها إلى حظيرة الدولة الأيوبية صاحبة الحق الشرعي فيها. إلا أن هولاكو اشترط في رسالة حملها إلى الناصر ابنه الملك العزيز أن يدخل الناصر في طاعته فازداد انزعاج الناصر[68].

وعندما رأى الناصر تساقط بلدان الشام في يد التتار الواحدة تلو الأخرى، واقتراب التتار من قلعة عجلون سنة 658هـ/1260م، أخرج سجينه البرنلي من حبس عجلون وأكرمه، أو بالأحرى اضطر إلى إخراجه وإكرامه ليستفيد من قدراته القتالية. "ودام

---

[66] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 15. وكانت "عجلون" قلعة من جند الأردن، مبنية على جبل يعرف بجبل عوف، تشرف على الغور، بناها عز الدين أسامة بن مرشد سنة 580هـ. وكان مكانها دير يعرف باسمه عَجلُون فسميت باسمه. انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج 4، ص 105 – 106، 200

[67] المقريزي، السلوك، ج 1، ق 2، ص 410 – 411.

[68] المقريزي، السلوك، ج 1، ق 2، ص415 – 416.

عنده إلى أن انهزم الناصر من الملك المظفر قطز (657 – 658هـ/1259-1260م)[69] بقطيا"[70].

ويرجع المقريزي سبب هزيمة الناصر إلى تخلي عديد من أمرائه وجنده عنه وانضمامهم إلى قطز[71]. ومرة أخرى كان شمس الدين آقوش البرنلي بين من تخلوا عن الناصر في ميدان القتال. وانفرد أبو المحاسن بذكر اسمه حيث قال: "دخل البرنلي مع العساكر المصرية إلى القاهرة" [72]. وهكذا خان البرنلي الناصر مرتين متتابعتين في خلال عشر سنوات، مرة في سنة 648 هـ / 1250م في موقعة الصالحية، ومرة في سنة 658 هـ / 1260م في قطيا، ليثبت للتاريخ أنه رجل لا يسعى إلا إلى مصلحته، ولا يهمه إلا تحقيق طموحاته التي لا تنتهي.

وبالفعل، فقد سعى آقوش البرنلي إلى جني ثمار خيانته، فسعى إلى الاتصال بالسلطان الملك المظفر سيف الدين قطز[73]، وشاركه، مع المماليك العزيزية، في قتال التتار في

---

[69] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 15. ومما يذكر أن قلج عجلون استعصمت على كتبغا نائب هولاكو، إلا أن الناصر أصدر أوامره إلى حاميتها بتسليمها إلى المغول الذين قاموا بهدمها. (انظر: أبو الفدا، المختصر، ج 3، ص 204؛ ابن الوردي، ج 2، ص 200، 203). أما "قطز" فينتمي إلى بيت الملك في خوارزم، فهو ابن أخت جلال الدين خوارزمشاه– كما سبق القول – وحين تمكن المغول من القضاء على الدولة الخوارزمية، كان قطز من بين الأسرى الذين حملوا إلى دمشق حيث بيع بيع الرقيق فاشتراه السلطان أيبك التركماني. وكلمة قطز كلمة تركية تعني الكلب الشرس. للتفاصيل انظر: الكتبي: فوات الوفيات، جزءان، بولاق، 1299 هـ، ج 2، ص 132– 133.

[70] قطيا: "أو قطية" : قرية في طريق مصر الشام، في وسط الرمل المعروف بالجفار، قرب الفرما، بالقرب من ساحل البحر (وقد جعلت لأخذ الموجبات وحفظ الطرقات وأمرها مهم، ومنها يطالع بكل صادر وارد) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 3، ص 401؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، 4 أجزاء، بيروت 1968، ج 7، ص 231.

[71] المقريزي، السلوك، ج 1، ص 513.

[72] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 15.

[73] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 16.

معركة عين جالوت[74] (658هـ/1260م). وعقب انتصار المماليك على التتار في هذه المعركة، أحسن إليه الظافر قطز وعينه أميرا على غزة والبلاد الساحلية الشامية، ورتب معه جماعة من العزيزية[75] وأقطعهم إقطاعات هائلة [76]. ولما تولى البرنلي هذه الأعمال استقر تارة بنابلس وتارة ثانية ببيت حبرون [77]. وهكذا تحقق أول طموحات آقوش البرنلي حين عين أميرا على غزة والساحل الشامي، واستمر بمنصبه إلى أن قتل الملك المظفر قطز[78].

الأمير شمس الدين آقوش البرنلي يسترد دمشق

عندما تسلطن الملك الظاهر بيبرس البندقداري (658 – 676هـ /1260م - 1277م)، خرج عليه – إثر إعلانه سلطانا – الأمير علم الدين سنجر الحلبي [79] سنة 658هـ/1260م، احتجاجا على مقتل قطز، الذي كان قد عينه من قبل نائبا على دمشق[80]

---

[74] ورد اسم "عين جالوت" في معجم البلدان ، وهي بلدة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين. ويرجع هذا الاسم إلى الأسطورة القائلة بأن داود قتل جالوت في هذا المكان، وقد سماها الصليبيون مدينة TUBANEA انظر :

معجم البلدان ، القاهرة، 1906، ج 6 ، ص 254، وانظر أيضا: Ency of Islam, Art. Ayn Djalut, t. I, p. 810; Boyle, J. A. Cambridge History of Persia, Cambridge, 1968, t. V, pp.351 - 352.

[75] أبوالفداء، المختصر، ج 3، ص 206؛ المقريزي، السلوك، ج 1، ص 518؛ أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 16؛ ابن الوردي، ج 2، ص202 – 203؛ ابن شداد، ص 39، ح 1.

[76] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 16.

[77] ابن الوردي، ج 2، ص 203؛ أبو الفدا، المختصر ج 3، ص 207 و"بيت حبرون" اسم القرية التي بها قبر إبراهيم الخليل عليه السلام، قرب بيت المقدس، وغلب عليها اسم الخليل. انظر: البغدادي: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع – تحقيق على محمد البجاوي – القاهرة 1954، ج 2، ص 376.

[78] أبو المحاسن، المنهل،ج 3، ص 16؛ أبو الفدا، المختصر، ج 3، ص206. انظر أيضا: Abou'L Feda, in R.H.C., Hist. Or., T. I. p. 144.

[79] هو سنجر بن عبد الله الصيرفي، علم الدين (ت 692 هـ / 1292م) كان أتابكا للملك المنصور في القاهرة، مما جعله أهم المنافسين لقطز الذي قام بتعيينه حاكما لدمشق إبعادا له، وإشباعا لطموحه. وقد عارض بشدة تولي بيبرس السلطة. والمعروف أن سنجر ثار بدمشق في سنة 658

فنادى بنفسه سلطانا على دمشق وتلقب بالملك المجاهد، وخطب له يوم الجمعة، وركب بشعار السلطنة، وشرع في عمارة قلعة دمشق استعدادا لقتال جيش بيبرس[81].

وإزاء تلك الحركة الانفصالية التي كانت ستقتطع – في حال نجاحها – بلاد الشام من جسد سلطنة المماليك البحرية الوليدة، لجأ بيبرس أول الأمر إلى الطرق السلمية لإنهاء هذا العصيان، فأوفد رسله وكتبه لإقناع علم الدين سنجر – المتغلب على دمشق – بلزوم الطاعة حقنا لدماء المسلمين[82] غير أن مساعيه لم تكلل بالنجاح، فلجأ إلى سياسة القمع،

هـ / 1260 م، وأنه دعا بالسلطنة لنفسه فيها، معتمدا على تحصينه لها وتعميره لسورها. فلما تخامر بيبرس مع أمراء دمشق ضده وحاصروه بالقلعة فر منها إلى بعلبك، فحاصره طيبرس الوزيري، حتى أخذه أسيرا، وبعث به إلى الديار المصرية، حيث ظل معتقلا بها إلى أن أخرجه وأمره الملك الأشرف خليل بن قلاوون في سنة 689 هـ / 1290م. ولم يزل سنجر أميرا بمصر إلى أن توفي. راجع: أبو المحاسن، المنهل، ج 6، ص 76؛ المقريزي، الخطط، ج 2، ص45؛ المقريزي، السلوك،ج 1، ص 522، سنة 658 هـ . انظر أيضا: عبد العزيز الخويطر: الملك الظاهر بيبرس – الطبعة الأولى، الرياض 1979م – ص 41.

[80] المقريزي، السلوك، ج1، ص 518. انظر أيضا: سعيد عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص 224.

[81] المقريزي، السلوك، ج 1، ص 522؛ أبو الفدا، المختصر، ج 3، ص 208؛ ابن الوردي، ج 2، ص 204؛ أبو المحاسن، النجوم، ج 7 ، ص104؛ النويري، ج 30، ص 38؛ ابن أيبك: الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية – تحقيق أولرخ هارمان – القاهرة 1971م – ص 63 – 64؛ بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة – الرياض د.ت. – ص 77؛ العيني، ج 1، ص 290؛ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، 4 أجزاء، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند 1380هـ / 1960م، ج 2، ص 91 – 93؛ ابن إياس، ج 1، ص 311 – 312.

[82] وقد أورد المقريزي: "فكتب الملك الظاهر إليه يعنفه ويقبح فعله، فغالطه في الجواب"، المقريزي، السلوك، ج 1، ص 522.

فطلب آقوش البرنلي – حسب رواية أبي المحاسن – وأغدق عليه [83]، وكان مقطعا غزة والساحل الشامي من أيام المظفر قطز – كما سبق القول – فزاده بيبرس بيسان [84] وأنعم على مملوكه قجقار عدة نواحي [85] كما أغدق على جماعة من العزيزية والناصرية [86]، وأمرهم بالتوجه مع العساكر المصرية لمحاصرة وقتال الأمير علم الدين سنجر الحلبي المتغلب على دمشق، ونجح البرنلي في إتمام المهمة الموكلة إليه، إذ استعاد دمشق من مغتصبها سنجر الحلبي، الذي أحضر إلى القاهرة حيث سجنه بيبرس في القلعة، وكان ذلك في السادس عشر من صفر سنة 659هـ/ يناير 1261م وظل بها هو والعزيزية[87] إلى أن عين بيبرس أستاذه الأمير علاء الدين إيدكين البندقداري الصالحي نائبا عليه[88].

وإذا كان خروج البرنلي مع قطز لمحاربة التتار في عين جالوت يمثل الفرصة الأولى التي أتيحت لهذا المتطلع إلى الملك لتحقيق طموحاته، فإن تكليف بيبرس له باسترداد دمشق من علم الدين سنجر كان بمثابة الفرصة الثانية، بل الفرصة الذهبية التي فتحت الباب على مصراعيه أمام هذا المملوك الطموح لزيادة نفوذه والمضي قدما في تحقيق أحلامه. إذ انه بعد أن نجح في استعادة دمشق من سنجر الحلبي. عاد إلى نزوعه الفطري إلى الانقلاب على سيده، كما فعل عندما انقلب على الناصر وانضم إلى المعز، ثم عندما انقلب على المعز وشارك في التآمر عليه، ثم عندما انقلب على الناصر

---

[83] أبو المحاسن، المنهل، ج 3 ، ص 16.

[84] ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق الدكتور عبد العزيز خويطر، الرياض، 1976، ص97.

[85] النويري، ج 30، ص 44. وفي ابن عبد الظاهر ص 97: "وأعطى مملوكه قجقار جماعة". ويبدو أن المحقق عبد العزيز الخويطر أسقط كلمتين من المخطوط.

[86] الناصرية هم مماليك الناصر يوسف صاحب حلب (634 – 658هـ/ 1237–1260م). انظر: جوزيف نسيم يوسف، العدوان الصليبي على مصر، الإسكندرية، دار الكتب الجامعية، 1969، ص 38.

[87] أبو المحاسن، المنهل، ج3، ص 17.

[88] أبو الفدا، المختصر، ج 3، ص 210؛ ابن الوردي، ج 2، ص 205؛ العيني، ج 1، ص 291، وعن علاء الدين البندقداري وأستاذيته لبيبرس أورد صاحب النجوم الزاهرة: " أخذ بيبرس من بلاده [أي بلاد القفجاق] وأبيع بدمشق للعماد الصائغ، ثم اشتراه الأمير علاء الدين أيديكن الصالحي البندقداري وبه سمي البندقداري، أبو المحاسن، النجوم، ج 7، ص 94.

وانضم إلى قطز. والملاحظ أنه كان في جميع هذه الحالات ينقلب على سيده لمناصرة خصمه الذي يتوسم فيه الانتصار. أما ما كان من أمره مع بيبرس، فقد شذ عن هذه القاعدة. فهو لم ينقلب على بيبرس ليناصر خصما لبيبرس، بل ليجعل من نفسه هو خصما لبيبرس، فيتمرد عليه ويدعو الآخرين لمناصرته في تمرده. إذ أنه بعد استقرار الأمور في دمشق، وتعيين علاء الدين البندقداري نائبا عليها، أمر السلطان بإلقاء القبض على بهاء الدين بغدي الأشرفي [89] "لأسباب أوجبت الإمساك به" [90]. فارتاب آقوش البرنلي من إلقاء القبض عليه هو أيضا، بل يذكر أيبك الداوداري أنه "تحقق أن يقبض عليه معه" [91] فخرج من دمشق هارب [92]ا في غسق الليل [93] وبصحبته جماعة من المماليك الأشرفية[94] والعزيزية والناصرية[95]،
ونزلوا بالمرج [96]والواقع أن موقف شمس الدين البرنلي من دمشق يطرح عددا من التساؤلات لا يمكن تجاهلها في هذه الحلقة من حلقات حياة هذا الثائر الطامح دوما إلى التملك. ولعل أهم هذه التساؤلات: هل كان البرنلي مخلصا لبيبرس حقا عندما سلم دمشق - بعد أن استردها بالقوة المسلحة من علم الدين سنجر – لعلاء الدين إيدكين البندقداري الذي عينه بيبرس نائبا عليها؟ ولماذا لم يحاول التغلب عليها أو تملكها كما

---

[89] أبو الفدا، المختصر، ج 3 ، ص 210؛ ابن الوردي، ج 2، ص 205؛ العيني، ج 1، ص 291؛ ابن أيبك، الدرة الزكية، ص 72؛ ابن عبد الظاهر، ص 97.

[90] ابن عبد الظاهر، ص 97. والملاحظ أن كافة المصادر الإسلامية لم تذكر أسباب إلقاء القبض على بهاء الدين بغدي. وانفرد ابن عبد الظاهر بذلك "لأسباب مجهولة".

[91] ابن أيبك، الدرة الزكية، ص 72.

[92] أبو الفدا، المختصر، ج3، ص 210؛ ابن الوردي، ج 2، ص 205؛ أبو المحاسن، المنهل، ج3، ص 17. انظر أيضا Abou'l Feda, p. 146

[93] أبو الفدا، المختصر، ج 3، ص 210؛ ابن الوردي، ج 2، ص 205؛ العيني، ج 1، ص 292. انظر أيضا: Abou'l Feda, p.146

[94] انفرد ابن عبد الظاهر دون غيره من المصادر الإسلامية بذكر انضمام المماليك الأشرفية إلى آقوش البرنلي. انظر: الروض الزاهر، ص 97.

[95] ابن عبد الظاهر، ص 97؛ أبو الفدا، المختصر، ج 3، ص 210؛ ابن الوردي، ج 2، ص 205؛ النويري، ج 30، ص 44.

[96] العيني، ج 1، ص 292؛ النويري، ج 30، ص 44؛ ابن عبد الظاهر 97؛ أبو الفدا، المختصر، ج 3، ص 210؛ ابن الوردي: ج 2، ص 205.

حاول اكثر من مرة في وقت لاحق التغلب على حلب ؟ هل كان قانعا بما أقطعه قطز من قبل في غزة والساحل الشامي ولم يكن يتطلع إلى المزيد، ثم ازداد قناعة بعد أن أنعم عليه بيبرس ببيسان وعلى مملوكه قجقار بعدة نواح لإغرائه بالخروج مع العساكر المصرية لمقاتلة علم الدين سنجر؟ هل كان في ذلك مطيعا لأوامر بيبرس بالخروج لمقاتلة سنجر فحسب؟ وبعبارة أخرى ألم يكن له مطمع في التغلب على دمشق قبل ذلك الوقت؟ وهل كان فعلا يضع عينه على حلب وحدها وليس سواها؟ ولماذا؟

أما إخلاصه لبيبرس، فإن المتابع لسيرة حياة هذا الرجل يدرك أن الإخلاص لسيد أو صاحب فضل كان آخر ما يمكن أن يخطر ببال شمس الدين آقوش البرنلي منذ ظهوره على مسرح الأحداث في سنة 648 هـ / 1250م حتى انتهاء حياته في سجن بيبرس في سنة 35668 هـ / 1270م. وأما القناعة، فصفة لم تعرف طريقها إلى قلبه، شاهدنا على ذلك تقلبه بين السادة ونقل ولائه من سيد لآخر رغبة في المزيد. فلا يبقى بعد ذلك إلا دافع لم يفصح عنه البرنلي ولم تشر إليه المصادر كان يدفعه إلى الزهد في دمشق والرغبة في حلب.

ولقد كانت حلب – مفتاح بلاد الشام - دائما محور اهتمام الأمير شمس الدين آقوش البرنلي. وليس ذلك بمستغرب من رجل أمضى أكثر من ثلاثين سنة من حياته في هذه المدينة حيث نشأ في خدمة ملكها الأيوبي العزيز غياث الدين بن محمد الذي تولى الحكم في 613هـ / 1216م حتى أصبح من أكابر مماليكه كما سبق القول، ثم انتقل إلى خدمة ابنه السلطان الناصر يوسف حتى خرج معه للاستيلاء على مصر في 648هـ / 1250م.

وإذا لم يكن لموقع حلب الجغرافي في شمال بلاد الشام على مقربة من ملك سلاجقة الروم[97] أو مركزها الاستراتيجي أو أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية دخل في تسلط فكرة التغلب عليها وتملكها على تفكير البرنلي، فإن طول مكثه بها قد جعله بلا شك خبيرا بها وبكل ما يجري فيها ولها كأنه من أهلها، وأهل مكة – كما يقولون – أعلم بشعابها. وربما تولد في نفسه، لطول مقامه بحلب شعور بالانتماء إليها وبأنه أحق بها بعد زوال ملك الأيوبيين عنها - على الرغم من غرابة فكرة الانتماء عند الحديث عن هذا الرجل وعدم اتساقها مع طبيعة شخصيته المتمردة الطموح - فنراه يخرج منها ويعود إليها المرة بعد المرة، ولربما خرج منها بإرادته حينا، كخروجه في ركاب الناصر للاستيلاء على مصر في 648هـ / 1250م[98]، أو لمناصرة الملك الصالح

---

[97] الملاحظ دائما على تحركات البرنلي أنه كان يتجه إلى شمال الشام حيث كانت تقوم مملكة سلاجقة الروم. وربما كانت لدى البرنلي دوافع معينة تدفعه إلى الاقتراب من هذه المملكة.

[98] انظر ص 7 من هذا البحث.

صاحب الموصل في مواجهة التتار[99]، كما سنفصل القول في موضع لاحق من هذا البحث، ومطرودا حينا، كخروجه منها أمام جيوش بيبرس تحت قيادة جمال الدين آقوش المحمدي الصالحي سنة 659 هـ / 1261م[100] ، ثم أمام جيش الأمير بلبان الرشيدي الذي أرسله بيبرس أيضا في العام نفسه[101]. غير أنه في كل مرة يعود إليها إنما كان يعود متغلبا عليها ساعيا إلى تملكها.

الأمير شمس الدين آقوش البرنلي متغلبا على حلب

خرج البرنلي إذن من دمشق هاربا في غسق الليل وبصحبته عدد من المماليك الأشرفية والعزيزية والناصرية عندما تحقق من القبض عليه. وخشي علاء الدين البندقداري أن يعم العصيان ربوع بلاد الشام، فحاول إنهاء تمرد البرنلي، وأوفد مبعوثيه إليه "ليطيب قلبه ويحلف له" [102] ولكن مساعي نائب دمشق باءت بالفشل. وسار البرنلي إلى حمص حيث طلب من الأشرف موسى الانضمام إلى ثورته، فلم يوافقه، فتوجه إلى حماة، وأرسل وفدا إلى الملك المنصور صاحبها يخبره بانضمام كل أفراد البيت الأيوبي إليه، وبأنه لم يبق سواه، وحاول أن يقنعه بالمطالبة بالملك، وبأنه وأتباعه سيساعدونه في تحقيق ذلك، كما عشمه بتمليكه البلاد. فرد المنصور ردا قبيحا، فاغتاظ البرنلي وقام بإحراق زرع بيدر العشر. ثم سار إلى شيزر [103]، ثم إلى جهة حلب حيث وضع يده على بعض مؤنها [104]. فأدرك بيبرس مدى خطر

---

[99] انظرص 35 من هذا البحث.

[100] أقوش بن عبد الله المحمدي الصالحي النجمي، كان من مماليك الصالح نجم الدين أيوب ومن أعيان الملك الظاهر بيبرس، وكان مرصودا عند الملك لكل أمر مهم. وهو أحد القادة سيرهم السلطان بيبرس للقضاء على عصيان البرنلي. انظر : أبو المحاسن، المنهل: ج3، ص 23.

[101] ابن كثير، البداية والنهاية في التاريخ، 14 جزء، القاهرة 1351 – 1358هـ، ج 13، ص 233؛ العيني، ج 1، ص 311؛ النويري: ج 30، ص 44.

[102] العيني، ج 1 ص 292؛ أبو الفدا، المختصر، ج 3، ص 210 – 221؛ ابن الوردي، ج 2، ص 205 اليونيني، ج 2، ص 121.

[103] قلعة تشتمل علي كورة بالشام، قرب المعرة، بينها وبين حماة مسيرة يوم، في وسطها نهر الأرند، عليه قنطرة في وسط المدينة أوله من جبل لبنان تعد في كورة حمص وهي قديمة ، ياقوت، ج 3، ص383.

[104] العيني، ج 1، ص 292؛ أبو الفدا، المختصر، ج 3، ص 211؛ ابن الوردي،ج 2، ص 205؛ ابن عبد الظاهر: ص 97.

عصيان البرنلي، وقرر ضرورة قمعه ليتفرغ للتصدي للخطر الكاسح المتمثل في هجمات التتار المتوقعة. ومما يذكر أن السلطان الظاهر بيبرس كان قد سبق له أن أصدر عفوا عن الأمير علم الدين سنجر الحلبي الذي ثار من قبل في دمشق [105] وقلده نيابة حلب، "وجهز معه أمراء لكل منهم وظيفة" [106]. فسار الأمير علم الدين سنجر من القاهرة "كما تسافر الملوك" ووصل إلى حلب في يوم السبت 3 شعبان سنة 659هـ/1261م. فحضر إليه جماعة من العزيزية والناصرية طالبين الأمان فرفض مطلبهم [107]. وهكذا لم يتبق إلا المواجهة العسكرية بين علم الدين سنجر والبرنلي. وبالفعل جرد علم الدين سنجر جماعة من العسكر لقتال البرنلي ومن معه من العزيزية والناصرية، فكانت الغلبة للبرنلي وأنصاره[108].

ويلاحظ في هذا الصدد أن المصادر لا تذكر شيئا عن ظروف أو أسباب عفو بيبرس عن علم الدين سنجر بعد أن قبض عليه علاء الدين البندقداري إثر تمرده على بيبرس وأحضره إلى القاهرة حيث سجن في القلعة [109].ويرى الباحث أن إفراج بيبرس عن علم الدين سنجر على هذا النحو(بعد نحو ستة أشهر ، حيث اعتقل في السادس عشر من صفر سنة 659 هـ / يناير 1261م، وأفرج عنه وسار إلى حلب لمقاتلة البرنلي في الثالث من شعبان من العام نفسه) وتقليده نيابة حلب، وتكليفه بقمع حركة البرنلي الاستقلالية في حلب، إنما يدل على أن بيبرس كان يثق في سنجر رغم هزيمته أمام البرنلي من قبل. والواقع أن هذا التصرف من جانب بيبرس إنما يمثل ظاهرة عامة في حكم المماليك ، حيث المصلحة هي الرائد في كل ما يعرض للحاكم المملوكي من أحداث. فقد رأينا من قبل كيف سجن الناصر الأيوبي شمس الدين البرنلي حين عاد إليه هاربا من المعز أيبك، ثم كيف أفرج عنه للاستعانة به في مواجهة خطر المغول ومحاربة قطز، حيث انقلب عليه البرنلي من جديد وانحاز إلى قطز[110] . فالإفراج عن

---

[105] النويري، ج 30، ص 44.

[106] المقريزي، السلوك، ج 1، ق 2، ص 451. انظر أيضا: النويري، ج 30، ص 44.

[107] المقريزي، السلوك، ج 1، ص 452 ؛ النويري، ج 30، ص 44؛ ابن عبد الظاهر: 113. ونستخلص من قول المقريزي "كما تسافر الملوك" مدى غرور علم الدين سنجر وضخامة حجمه السياسي الذي يذكرنا بفارس الدين أقطاي أثناء سلطنة المعز أيبك.

[108] النويري، ج 30، ص 4؛ ابن عبد الظاهر، ص113.

[109] المقريزي، السلوك، ج1، ص526.

[110] انظر ص 17 من هذا البحث؛ أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 15.

السجين قد يكون الدافع إليه الاستفادة من القدرات القتالية للسجين كما هو الحال بالنسبة للناصر مع البرنلي، أو الثقة في ولائه ، كما يرجح الباحث بالنسبة لبيبرس مع علم الدين سنجر.

أمر آخر يستلفت النظر في موقف علم الدين سنجر من جماعة العزيزية والناصرية الذين حضروا إليه طالبين الأمان فرفض طلبهم. ورغم أن المصادر لا تشير إلى مصير هؤلاء الذين طلبوا الأمان وما إذا كانوا قد عادوا إلى البرنلي أم اتخذوا وجهة أخرى، فإن الموقف في حد ذاته حافل بالدلالات التاريخية التي يمكن استقراؤها من الصورة العامة لهذه الواقعة. فنحن أولا أمام ظاهرة مألوفة من ظواهر العصر المملوكي، حيث يمون انتماء لفرد هو انتماءه إلى نفسه، وإلى أستاذه، وإلى خشداشه، وحيث الدافع الوحيد وراء جميع تصرفاته هو مصلحته الشخصية الفردية، لا مصلحة الجماعة التي ينسب إليها ويحمل اسمها. فهاهم المماليك العزيزية يجرعون البرنلي نفس الكأس التي جرعها للملك الناصر يوسف من قبل حين تخلى عنه وانضم إلى جيش المعز أيبك، فيتخلون عنه ويتوجهون إلى غريمه علم الدين سنجر يطلبون عنده الأمان. والأيام دول.

وينطوي هذا الحدث أيضا على حقيقة يمكن للمرء أن يستشفها من قراءة شخصيات أبطال الحدث. فلم يكن البرنلي – في رأي الباحث، واستنادا أيضا إلى عدم ورود أي إشارة إلى ذلك في المصادر – ضمن مماليك العزيزية الذين طلبوا الأمان من علم الدين سنجر. فلا شخصية البرنلى الطموح، الواثق من نفسه تسمح بمثل هذا الافتراض، ولا رفض سنجر منح هؤلاء اللاجئين إليه الأمان يشير إلى وجود البرنلي بينهم، وإلا كان ذلك اللجوء يمثل نصرا مقدما على طبق من ذهب لسنجر، فما الذي يحمله على رفض استسلام عدو هو أدرى الناس بقدراته القتالية الفذة؟؟ وما الداعي إلى مواصلة التقدم لقتاله لو أنه أتاه طالبا الأمان؟

وبسبب تلك الهزيمة التي مني بها علم الدين سنجر، عزله السلطان بيبرس فغادر حلب وعاد إلى دمشق، فتغلب البرنلي على حلب[111] التي كان بها آنذاك الأمير فخر الدين أيدمر الحلي الحمصي [112]، إذ جهزه الملك الظاهر بيبرس على رأس العساكر المصرية للدفاع عن البلاد الحلبية في مواجهة الغزو التتاري، وكان ذلك في

---

[111] النويري، ج30 ، ص 44؛ ابن عبد الظاهر، ص 113.

[112] فخر الدين إدمار الحلبي، أيدمر بن عبد الله الحلبي النجمي، الأمير عز الدين، كان خصيصا عند الملك الظاهر بيبرس، وكان يستنيبه عند توجهه إلى البلاد الشامية، لوثوقه به واعتماده عليه . انظر:أبو المحاسن، النجوم، ج 2، ص293.

سنة 659هـ/ 1261م[113]. وباقتراب البرنلي ومناصريه من المماليك العزيزية والناصرية من حلب، ظن فخر الدين الحمصي أنه جاء نجدة له[114]، بينما شعر البرنلي أن الفرصة واتته لبسط سيادته على حلب، فدخلها وتغلب عليها[115] وأقام بها [116]. وفي محاولة ماكرة، تكشف عن جانب من شخصية البرنلي، لإزاحة فخر الدين الحمصي من طريقه، وإخراجه من حلب للاستحواذ عليها بمفرده دون عائق، أقنعه البرنلي بأن يتوسط له عند السلطان بيبرس حتى يحظى بتعيينه نائبا على حلب[117].

وبمجرد رحيل فخر الدين الحمصي عن حلب بسط البرنلي سيادته على نيابتها "واحتاط على ما في حلب من الحواصل، واستبد بالأمر"[118]. كما ألقى القبض على من كان في صحبة فخر الدين الحمصي فعاقبهم وصادر أموالهم وممتلكاتهم [119]. ولم يكتف بذلك، بل "جمع العرب والتركمان، واستعد لقتال عسكر مصر"[120] ويلاحظ أن هذه كانت المرة الأولى التي تشير فيها المصادر العربية إلى وجود عرب وتركمان في جيش البرنلي وتصرف البرنلي في أمور نيابة حلب بعد أن خلت له، فأصبح

---

[113] فخر الدين إدمار الحلبي، أيدمر بن عبد الله الحلبي النجمي، الأمير عز الدين، كان خصيصا عند الملك الظاهر بيبرس، وكان يستنيبه عند توجهه إلى البلاد الشامية، لوثوقه به واعتماده عليه . انظر:أبو المحاسن، النجوم، ج 2، ص293.

[114] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 17. في ابن أيبك "خافه الأمير فخر الدين لما اشتم خبره". نظر: الدرة الزكية، ص 72

[115] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 17.

[116] النويري، ج30، ص 44.

[117] العيني،ج 1، ص 292؛ النويري، ج 30، ص 40؛ أبو الفدا، المختصر، ج 3، ص 211؛ ابن الوردي، ج 2، ص205؛ اليونيني، ج 2، ص 104 – 105. انظر أيضا: Abou'l Feda, p. 148 هذا بينما يذكر ابن أيبك أنه حين دخل البرنلي حلب "خافه الأمير فخر الدين لما اشتم خبره فعمل في الحيلة على الهرب منه". لذا طلب من البرنلي السماح له بالسفر إلى السلطان في مصر "ليتوسط له عنده ويستطلع إليه"، ابن أيبك، الدرة الزكية، ص 72.

[118] العيني، ج 1، ص 231؛ أبو الفدا، المختصر، ج 3، ص 211؛ ابن الوردي، ج 2، ص 205

[119] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 17؛ ابن أيبك، الدرة الزكية ص 72.

[120] أبو الفدا، المختصر، ج 3، ص 211؛ ابن الوردي، ج 2، ص 205؛ العيني، ج 1، ص 293. والملاحظ تطابق الروايات الثلاث بما يؤكد نقل كل من ابن الوردي والعيني عن أبي الفداء

الآمر الناهي، "وأمر الأمريات وأقطع الإقطاعات"[121]. ووفد عليه آنذاك الأمير زامل بن حديثة[122] " ففرق عليه وعلى أصحابه تسعة آلاف مكوك [123]مما احتاط عليه من الغلال التي كانت مطمورة بحلب"، كما فرق على التركمان أربعة آلاف أخرى [124]. وركب البرنلي الغرور وكان ابن أيبك بليغا حين قال "وظن بنفسه ما ظنه غيره" [125]. وينفرد المقريزي بذكر أن البرنلي أقام بحلب نحو أربعة أشهر، ثم توجه إلى البيرة واستولى عليها ومضى إلى حران [126] فأقام بها" وصار يقرب من حلب ويبعد عنها خوفا من السلطان" [127]. ومن هنا جاء وصف المصادر له "بالمتغلب" على حلب، فهو لم يملكها بالحق الوراثي، ولا بمبايعة الناس له ، ولا باستنابته رسميا من قبل السلطان الشرعي للبلاد، وهو الملك الظاهر بيبرس[128] . كان من الطبيعي أن يحتاط السلطان من ازدياد نفوذ وأعوان البرنلي في حلب وانفراده بها. وكان لابد من قمعه

---

[121] ابن أيبك، الدرة الزكية، ص 72. انظر أيضا: أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 17.

[122] هو زامل بن علي بن حديثة، حضر مع جمع كبير من آل ربيعة – وهي بطن من بطون القحطانية –إلى الأبواب السلطانية بالديار المصرية في سلطنة المعز أيبك التركماني. وكان آل ربيعة سادات العرب ووجوهها وكانت لهم عند السلاطين حرمة كبيرة وصيت عظيم على رونق في بيوتهم ومنازلهم، إلا أنهم مع بعد صيتهم قليل عددهم. انظر: القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب – مكتبة التراث الإسلامي بموقع نداء الإيمان على الإنترنت www.al-eman.com .

[123] المعروف أن مكيلات حلب كانت تعتبر بالمكوك في حاضرتها وسائر أعمالها، وعبرته في حاضرتها سبع وبيات بالكيل المصري، وأما في نواحيها وبلادها، فيتباين في الزيادة والنقصان . انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج 4، ص 215–216.

[124] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص17؛ ابن أيبك، الدرة الزكية، ص 72. والملاحظ أن أبا المحاسن (ت 874هـ) نقل عن ابن أيبك (ت 733هـ) والكفى بتتبع كلمة مخزونة بـ"مطمورة".

[125] ابن أيبك، الدرة الزكية، ص 72.

[126] مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أقورة، بينها وبين الرها مسيرة يوم، وهي على الطريق الموصل بين الشام والحدود البيزنطية وهي قصبة ديار مضر: ياقوت، المجلد الثاني، ص 106.

[127] المقريزي، السلوك، ج 1، ص 539.

[128] في لسان العرب لابن منظور: تغلّب على بلد كذا: استولى عليه قهرا. ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد، طبعة دار المعارف، القاهرة، 1979، 6 مجلدات، المجلد الخامس، ص 3279.

وخلعه من نيابة حلب التي نصب نفسه عليها دون موافقته. ولذا فإنه ولى علم الدين سنجر الحلبي – غريم البرنلي – نيابة حلب[129]. ولم يكتف بذلك بل كلفه بقتال البرنلي وإنهاء تمرده وبعث معه عسكرا من مماليك مصر[130] وعلى رأسهم جمال الدين آقوش المحمدي الصالحي. وبينما كانت القوات المملوكية المصرية في طريقها إلى حلب التقى أميرها جمال الدين آقوش بفخر الدين الحمصي متوجها إلى مصر للقاء السلطان بيبرس للتوسط لتعين البرنلي نائبا على حلب. إلا أن وساطة الحمصي قوبلت بالرفض واللوم، وأمره السلطان بالانضمام إلى جيش آقوش المحمدي، والتوجه إلى حلب ثانية لقتال البرنلي[131] ولم يكتف بذلك، بل "أردفه بعز الدين الدمياطي [132] في جمع آخر، وسار الجميع إلى جهة البرنلي"[133] وباقتراب الجيش السلطاني من حلب كان البرنلي على تل السلطان [134]، فاضطر إلى الرحيل إلى الرقة [135] . فطارده آقوش المحمدي.

---

[129] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 17؛ أبو المحاسن، النجوم، ج 7، ، ص113؛ ابن عبد الظاهر، ص 14؛ اليونيني، ج 2، ص 92.

[130] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 17 – 18؛ أبو المحاسن، النجوم، ج 7، ص 113؛ أبو الفدا، المختصر، ج 3، ص 211؛ ابن الوردي، ص 205.

[131] العيني، ج 1، ص293؛ أبو الفدا، المختصر، ج 3، ص 211؛ ابن الوردي، 205.

[132] عز الدين الدمياطي، أيبك بن عبد الله الدمياطي، الأمير عز الدين، كان من مماليك الصالحية، ومن أعيان الأمراء بديار مصر، وتنقل بعدة وظائف إلى أن أمسكه الملك الظاهر وحبسه سبع سنين. أبو المحاسن، المنهل، ج 3 ص 522.

[133] العيني، ج 1، ص 293؛ أبو الفدا، المختصر، ج 3، ص 211؛ ابن الوردي، 205.

[134] موضع بينه وبين مدينة حلب مرحلة، نحو دمشق، وفيه خان يعرف بالفندق، البغدادي، ج3 ، ص 271

[135] الرقة من جملة مدائن مدين فيما بين بحر القلزم وجبل الطور: المقريزي: المواعظ والاعتبار ، دار صادر، بيروت، ج 1، ص 228 ، وذكر الأصطخرى أن الرقة والرافقة مدينتان متلاصقتان، وف كل واحدة منهما مسجد جامع، وهما على شرقي الفرات كثيرتا الأشجار والمياه في مستوى الأرض خصيبتان. انظر: الأصطخرى، مسالك الممالك، نشر دي غويه – ليدن 1346هـ / 1927م ص 53.

وأدرك البرنلي الهزيمة، فخرج من حلب ودخلها سنجر الحلبي ليصبح نائبا معينا رسميا من قبل بيبرس[136].

ولكن جمال الدين آقوش المحمدي لم يكتف بإجبار البرنلي على الخروج من حلب، بل حرص على مطاردته في كل موضع حل به حيث يقول أبو المحاسن "وسار آقوش المحمدي يتبع البرنلي حيث توجه، فأدركه في الطريق فركب البرنلي ودخل على المحمدي في مخيمه..."[137] طالبا منه أن يستعطف السلطان بيبرس بحيث يبقيه – أي يعينه نائبا – على حران لأنه نجح في طرد نواب التتار منها وتولى أمورها مكانهم، وكان ذلك سنة 659هـ/ 1261م، كما قال له "أنا مملوك السلطان، وما هربت خوفا منه وأخبره أيضا أنه إذا لم يسمح له السلطان بنيابة حران التي طرد منها نواب التتار، فسيضطر إلى الالتجاء إليهم"[138]. وهنا تبرز مسألة الولاء، فالولاء الوحيد الذي يدين به المملوك هو لمن يجد عنده مصلحته الشخصية ولا يجد المملوك غضاضة في نقل ولائه من سيده إلى عدو سيده ما دامت مصلحته تقتضي ذلك.

غير أن رواية صاحب "المنهل" لهذه الأحداث يكتنفها الغموض، فلا يفهم القاريء لهذه الرواية المقصود بهذه العبارة: "فأدركه في الطريق فركب البرنلي ودخل على المحمدي في مخيمه". فإذا كان البرنلي قد خرج من حلب عند اقتراب عسكر المحمدي، فإن المعنى الوحيد لذلك هو أن البرنلي عرف - أو على الأقل شعر – أن قوات جمال الدين آقوش المحمدي كانت أكبر من أن يواجهها فآثر الفرار من حلب والتخلي عنها حتى لا يقع في قبضة السلطان. ويؤيد هذا الفرض - أي تفوق قوة المحمدي على قوة البرنلي- عدم اكتفاء آقوش المحمدي بإخراج البرنلي من حلب، وهو الهدف الرئيسي أو الوحيد من وراء حملته، وإصراره على مطاردته في كل مكان نزل به. ويفهم من مجرد لفظة "يتبع" أنه واصل مطاردته له. والأصل في المطاردة أن يكون المطارد ، بكسر الراء، أقوى من المطارد، بفتحها. فكيف تستقيم هذه العلاقة بين البرنلي والمحمدي من حيث ميزان القوى ورواية أبي المحاسن عن "ركوب" البرنلي و"دخوله على المحمدي في مخيمه"؟ إن اقل ما يمكن تصوره من هذا "السيناريو" هو أن البرنلي لم يكن يتصرف كطريدة وقعت في يد الصياد الذي

---

[136] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 18؛ أبو الفدا، المختصر، ج 3، ص 211؛ ابن الوردي، ص 205؛ العيني، ج 1، ص 293؛ العيني، ج 1، ص 310؛ أبو المحاسن، النجوم، ج 7، ص 113.

[137] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 18. وقد انفرد أبو المحاسن بذكر تلك الرواية دون غيره من المصادر.

[138] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 18.

كان يطاردها، أو حتى كأسير حرب، فليس ثمة حديث عن حرب جرت بينهما. بل هو يركب جواده، فيما يفترض، حتى يصل إلى خيمة المحمدي فيدخل عليه (بفتح الياء وليس بضمها) ويحدثه. وليس هذا شأن الأسير أو الطرف المهزوم في معركة. وعلى الرغم من نبرة الضعف التي يستشفها القاريء في الحديث الذي توجه به البرنلي إلى المحمدي: "... وقد رغبت إليك في أن تستعطفه بحيث يبقي علي حران" ، فإن هذا الضعف الذي يظهره البرنلي إنما هو رسالة دبلوماسية موجهة إلى بيبرس فقط وليس إلى المحمدي أو غيره، غير أن نبرة الاستعطاف هذه سرعان ما تتحول إلى نبرة تهديد. فيقول للمحمدي: ".... ومتى لم يسمح لي بها لم أجد بدا من التجائي إلى التتار". ويرى الباحث في حديث البرنلي هذا - والذي كان بلا شك جزءا من حوار جرى بين الرجلين وسكت أبو المحاسن عما جرى على لسان المحمدي فيه – شواهد قوة غير خافية يستند إليها البرنلي في موقفه. ولعل الذي جرى بين الرجلين هو أن المحمدي لحق بالبرنلي وكانت بينهما مسافة فاصلة. ولسبب ما توقف البرنلي عن الفرار وتوقف المحمدي عن المطاردة وقرر الرجلان الدخول في مفاوضات اتفق عليها. فتقدم البرنلي راكبا دون أن يخشى من القبض عليه، ودخل خيمة المحمدي وجرى بينهما ذلك الحديث الذي تكفل المحمدي في نهايته بإيصال التماس البرنلي إلى السلطان، وعاد ثانية إلى حلب. فما كان من البرنلي إلا أن بسط سيادته على حران "وكان ذلك خديعة منه" على حد تعبير أبي المحاسن دون انتظار موافقة السلطان [139]. ولم يكتف بحران بل استولى على البيرة [140] وقصد حلب[141]

ومن الجدير بالتسجيل أن الانتصار الذي أحرزه البرنلي على التتار في حران رفع من معنوياته ومعنويات أتباعه من العزيزية والناصرية، فتشجع للانقضاض على غيرها من بلاد الشام. ومن ناحية أخرى، فقد أدرك بيبرس مدى خطورة هذا الثائر العنيد على النيابات الشامية الأخرى التي ربما تشجعه على الانفصال عن جسد سلطنة المماليك البحرية. يضاف إلى ذلك أن اليأس قد تطرق إلى قلب البرنلي في مساعيه الرامية إلى

---

[139] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 18؛ العيني: ج 2، ص 105؛ أبو الفدا، المختصر، ج3، ص 211.

[140] البيرة بلد قرب سميساط بين حلب والثغور الرومية، وهي قلعة حصينة لها رستاق واسع (انظر : ياقوت، ج 2، ص 330؛ البغدادي، ج 1، ص 240) ، وفي الكامل أنها قلعة منيعة على الفرات من الجانب الجزري: انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ – بيروت 1987م ، ج 10، ص 108، وانظر أيضا Dussaut, R., Topographie Historique De La Syrie Antique et Médiéval, Paris, 1924, p. 461

[141] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 18.

المصالحة مع السلطان بيبرس، خاصة بعد فشل مساعي كل من فخر الدين الحمصي وجمال الدين آقوش المحمدي، بل إنه أوفد غيرهما لتحقيق حلمه بالاعتراف به نائبا على حلب أو غيرها من البلدان الشامية. فقد أورد محيي الدين ابن عبد الظاهر كاتب سيرة السلطان الظاهر أن السلطان "أبى إلا حضوره إلى الخدمة" [142]. وبلغت مساعي البرنلي السلمية مداها حين سير إلى السلطان بيبرس علم الدين جلم الأشرفي [143] بكتبه يسأله الصفح [144]"ومعه كفنه وسيفه" [145]. إلا أن كل تلك المساعي تحطمت لانعدام الثقة بين الطرفين من ناحية، ولتهديد البرنلي بالارتماء في أحضان هولاكو إيلخان [146] التتار الأعظم من ناحية أخرى. أما انعدام الثقة بين الرجلين فيظهر جليا فيما أورده النويري من أن السلطان "لم يزل يكاتبه ويرغبه ويعطيه العهود والمواثيق على الوفاء" إلا أن البرنلي لم تنطل عليه تلك السياسة الماكرة لانعدام وفاء السلطان بوعوده ونكثه العهد. ويؤكد ذلك أن السلطان سير إليه الأمير بدر الدين بكتاشي الفخري [147] حاملا إليه رسالة "وشافهه

---

[142] ابن عبد الظاهر، ص 113.

[143] في نهاية الأرب، ج 30، ص 45 : "حكم" ، وفي "الروض الزاهر" ص 113: "جلم" وصحة ذلك "حكم الأشرفي". انظر: العيني، ج 1، ص 322.

[144] النويري: ج 30، ص45.

[145] ابن عبد الظاهر، ص 113.

[146] أطلق التتار لقب "خاقان" على الرئيس الأعلى لدولتهم ، ومعناه "الخان الأعظم" . و"خاقان" يختلف عن "خان" الذي أطلقوه على رؤسائهم الذين يتولون جزءا من إمبراطورية التتار. وقد استعمل التتار لقب "خان" أيضا بمعنى "خاقان"، وربما كان ذلك من باب الرغبة في الاختصار. انظر: ابن أبي الفضائل، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، تحقيق بلوشيه في: P,O., t. XII-XIV, Paris, 1911، ص 73، حاشية رقم 1؛ المقريزي، السلوك، ج 1، ص 307، حاشية رقم 4. انظر أيضا: فايز نجيب اسكندر: المشرق الإسلامي في مواجهة تحالف المغول والأرمن – مجلة الثقافة اليمنية – العدد 19 – ص 107، حاشية رقم 2 . وكذلك: GESTES DES CHIPROIS, DANS R.H.S., DOC ARM, T. II, P. 841, N.D.

[147] هو بكتاش بن عبد الله الفخري، الأمير بدر الدين، المتوفى سنة 706 هـ / 1306م. وقد اتصف بالشجاعة والعقل والخبرة وكان مقدما على الجيوش . أصله من مماليك الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ، ثم نقل إلى ملك الملك الصالح نجم الدين، فترقى في الخدمة حتى صار من كبار الأمراء ، وغزا غير مرة. انظر أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 385؛ ابن حجر

باليمين"، فقال له الأمير شمس الدين آقوش البرنلي: "فقد جاءتني رسالة هولاكو يطلبني إليه، وحلف لي، وهذه رسالة السلطان ويمينه، وأنا، والهك "أعلم أن هولاكو يفي، وأن السلطان لا يفي"[148].

ونخلص من رد البرنلي إلى أنه أقدم على مراسلة هولاكو، وأن إيلخان التتار انتهز تلك الفرصة المواتية لتشجيعه على خيانة سيده قاهر التتار في عين جالوت وتمزيق صفوف الجيش المملوكي حتى يتمكن من استعادة بلاد الشام. وتناسى البرنلي أن التتار لا يلتزمون طوال تاريخهم الدموي بتعهداتهم ووعودهم، وأن إقدامه على تصرف كهذا يعد خيانة في حق سلطنة المماليك والمسلمين عامة، لاسيما وأن التتار كانوا يحلمون آنذاك بإزالة آثار الهزيمة الساحقة التي لحقت بهم في عين جالوت على يد الأمراء المماليك. وكان البرنلي أحدهم آنذاك، إذ حارب جنبا إلى جنب مع الظافرين قطز وبيبرس [149].

وأثبت علم الدين سنجر الحلبي – الذي هزمه آقوش البرنلي مرتين – مرة في صفر سنة 659 هـ / 1261م، عندما استرد دمشق منه لصالح بيبرس[150]، ومرة في شعبان من العام نفسه عندما هزم القوات التي أرسلها سنجر بناء على أوامر بيبرس لقمع تمرد البرنلي [151] - عدم قدرته على بسط سيادته على حلب. فأثناء إقامة البرنلي بتل باشر [152]، خرج عن طاعة علم الدين سنجر الحلبي نائب حلب "أكثر من كان معه ولحق بالبرنلي"، فما كان من علم الدين سنجر إلا أن خرج من حلب ليلا، وسار إلى دمشق [153]. وكان من الطبيعي

العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد سيد جاد الحق – 5 أجزاء – القاهرة 1966، ج 2، ص 24؛ الصقاعي: تالي كتاب وفيات الأعيان – مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس رقم FONDS ARABE 2051 – ورقة 56، ترجمة، رقم 86؛ المقريزي، التاريخ الكبير المقفى في تراجم أهل مصر والواردين إليها – مخطوط بالمركز القومي للأبحاث العلمية بباريس CNRS رقم 2832 – ورقة 254 أ – 255 ب؛ أبو المحاسن، النجوم، ج 8، ص 224؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه في أين المنصور وبنيه، ج1 و 2 نشر وتحقيق محمد محمد أمين، القاهرة 1976، ج 1، ص 277.

[148] النويري، ج 30، ص 59.

[149] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 16 ، 17.

[150] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 17.

[151] النويري، ج 30، ص 4؛ ابن عبد الظاهر، ص113.

[152] تل باشر: كانت قلعة حصينة وكورة واسعة في شمال حلب، ولها ريض وأسواق عامرة، وأهلها نصارى أرمن، ياقوت، ج 2، ص 402.

[153] المقريزي، السلوك، ج 1، ص 537؛ انظر أيضا أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 18.

أن يسعى آقوش البرنلي من جديد إلى بسط سيادته على حلب بعد أن طرده منها جمال الدين آقوش المحمدي. وبالفعل أرسل إليها الطقصبا بن عبد اهل6 الناصري التركي [154] وكيكلدي الحلبي[155]. وتسلماها من الخارجين على علم الدين سنجر الحلبي نائب بيبرس على حلب[156]

عندما سمع بيبرس بتلك الأحداث الخطيرة، وجه اللوم إلى أميره آقوش المحمدي[157] الذي كان قد استقبله بعيد تلك الأحداث. ولا شك أنه كان هناك أكثر من سبب لتوجيه اللوم إلى آقوش المحمدي. إذ أنه فرط في أمر حلب، ولم يتخذ موقفا تجاه من خرجوا على علم الدين سنجر وانضموا إلى البرنلي، بالإضافة إلى ما تكفل به من التوسط للبرنلي لدي بيبرس ليعينه نائبا على حران. وأدرك بيبرس ضرورة تدخله شخصيا حتى يعيد الأمور إلى نصابها الصحيح، وحتى لا تؤول حلب إلى التتار وتصبح مركزا عسكريا لهم لاستعادة بلدان الشام، الأمر الذي يعكس تخوف بيبرس من تواطؤ البرنلي مع المغول وسقوط حلب في أيديهم بشكل أو بآخر، لا سيما وإن البرنلي كان قد هدد بالفعل باللجوء إليهم لذا فقد استناب بيبرس على مصر عز الدين أيدمر الحلبي[158] ورتب أمور السلطنة[159]. وسار بيبرس على رأس قواته إلى دمشق، فدخلها يوم الاثنين سابع ذي القعدة سنة 659هـ/ 1261م، وعين الأمير علاء الدين إيدكين البندقداري نائبا على حلب "فتوجه إليها وأقام بها"، وبعث معه قوات مملوكية

---

[154] هو الطقصبا بن عبد الله الناصري التركي (ت 697 هـ/1297م)، طقطاي بن عبد الله الطوشي الرومي، الأمير عز الدين، من رؤوس الفتن في وقعة الناصري ومنطاي، وممن بارز برقوق بالعداوة، فقد كان من عسكر الناصري الذين هاجموا القاهرة ضد برقوق. انظر: أبو المحاسن، المنهل، ج6، ص 228.

[155] هو الطقصبا بن عبد الله الناصري التركي (ت 697 هـ/1297م)، طقطاي بن عبد الله الطوشي الرومي، الأمير عز الدين، من رؤوس الفتن في وقعة الناصري ومنطاي، وممن بارز برقوق بالعداوة، فقد كان من عسكر الناصري الذين هاجموا القاهرة ضد برقوق. انظر: أبو المحاسن، المنهل، ج6، ص 228.

[156] قتل كيكلدي الحلبي في سنة 660 هـ/1261م. كنز الدرر وجامع الغرر – تحقيق أولرخ هارمن ، القاهرة 1971، ج 8، ص 88، سنة 660.

[157] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ، ص 19 ؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، 10 أجزاء، القاهرة، 1340 – 1351، ج 5، ص 357.

[158] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 19؛ النويري، ج 30، ص 44.

[159] العيني، ج 1، ص 310 – 311؛ ابن كثير، ج 13، ص 232 – 233؛ النويري، ج 30، ص 44

بقيادة الأمير بلبان الرشيدي [160] وأمره بالتوجه إلى حلب "لمحاربة البرنلي المتغلب عليها المفسد فيها"[161]. هكذا انطلقت القوات المملوكية من دمشق بقيادة الأمير بلبان الرشيدي وذلك في منتصف ذي القعدة سنة 659هـ/ 1261م لقتال البرنلى "المتغلب على حلب". فلما وصلوا إلى حماة خرج البرنلي من حلب وقصد حران، فتعقبه الرشيدي، بينما نجح نائب حلب الجديد علاء الدين البندقداري في دخولها. وباقتراب الرشيدي من نهر الفرات، اضطر البرنلي إلى الرحيل عن حران [162] وقصد قلعة القرادي[163]، فحاصرها حتى أخذها من التتار عنوة ونهبها وفي غضون ذلك عاد الرشيدي إلى مصر، بينما رجع البرنلي إلى البيرة، وبعث جماعة من أنصاره إلى حلب. وحين سمع بذلك علاء الدين البندقداري، فر من حلب وقصد حماة [164] ودخل البرنلي حلب[165] إذ خشي [علاء الدين] عودة البرنلي على حد قول النويري [166]. بينما تذكر مصادر أخرى أنه شاءت أقدار الأمير علاء الدين البندقداري أن يقيم بحلب وهي "في أشد ما تكون من غلاء الأسعار، وعدم الأقوات" [167] ، كما تضرر الجند

---

[160] بلبان بن عبد الله الزيني الصالحي، الأمير سيف الدين، مقدم البحرية أوائل دولة الأتراك. حبسه الملك الظاهر بيبرس في سنة 661هـ/1262م مدة يسيرة ثم أطلقه وجعله أميرا بدمشق. انظر: أبو المحاسن، المنهل، ج 6، ص 417؛ أبو المحاسن، النجوم، ج 7، ص 405 و 410؛ المقريزي، السلوك، ج 1، ص 557، سنة 661، ابن أيبك، كنز الدرر، ج 8، ص 19.

[161] ابن كثير، ج 13، ص 233؛ العيني، ج 1، ص 311؛ النويري: ج 30، ص 44.

[162] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ، ص 19.

[163] لم يعثر الباحث على معلومات كافية عن هذه القلعة، وإن كان ابن الأثير قد أشار إلى قرية بهذا الاسم تحت أحداث سنة 598هـ ، حيث ذكر أن الملك العادل صاحب دمشق حاصر ماردين ثم أرسل طائفة من عسكره إلى رأس عين لقمع ثورة للتركمان، ولكنها لم تحقق هدفها وتدخل الملك الظاهر صاحب حلب للصلح بينهما. واتفق على أن يأخذ الظاهر عشرين ألف دينار و"قرية القرادي من أعمال شيختان". الكامل، ج 10، ص 281، وهو ما يرجح وقوع هذه القرية في مكان ما بالقرب من ماردين ورأس عين (جنوبي تركيا في العصر الحديث).

[164] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 19.

[165] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 20.

[166] النويري، ج 30، ص 45

[167] ابن عبد الظاهر، ص 113. انظر أيضا: الزويري، ج 30، ص 45.

المصاحبون لعلاء الدين البندقداري من انعدام الأقوات وانتشار المجاعة في ربوع حلب لدرجة أن نائبها لم يقو على البقاء بها، فغادرها وأقام بحماة [168]، واعتذر للسلطان عن فعلته تلك قائلا "إنما فارق حلب لشدة الغلاء وعدم الأقوات"[169].

وهكذا أتاح نائب حلب علاء الدين البندقداري الفرصة لآقوش البرنلي لدخولها، وحاول البرنلي تبرير سبب عودته ثانية إليها بمفارقة نائبها لنيابته بمحض إرادته، كذلك كتب اعتذارا إلى السلطان يعتذر فيه عن رجوعه إليها وأنه تحت طاعته "وتوالت كتبه بالاعتذار"[170].

من أهم الملامح التاريخية للفترة التي يؤرخ لها هذا البحث، ملمح يؤكد بما لا يدع مجالا للشك طموحات البرنلي وتطلعاته ومحاولاته المستمرة لإثبات وجوده كإحدى القوى السياسية المؤثرة في المنطقة في ذلك الوقت.

ونعني بذلك مبايعته لأبي العباس أحمد حفيد الخليفة المسترشد بن المستظهر العباسي (512-529هـ/ 1118-1135م) ، الذي كان في طريقه إلى مصر بناء على دعوة بيبرس ليبايعه خليفة للمسلمين. وقد أراد بيبرس بذلك أن ينفذ مشروع إحياء الخلافة العباسية. ولكن أبا العباس رجع إلى الشام وقصد حلب عندما علم أن رجلا آخر من أبناء البيت العباسي هو أبو القاسم أحمد، سبقه إلى حضرة بيبرس الذي بايعه فعلا في مجلس عام بالديوان الكبير بالقلعة، ولقب بالخليفة المستنصر (623-640هـ/ 1226-1242م). وكتب بيبرس إلى الملوك والنواب أن يأخذوا البيعة للخليفة وأن يدعى له على المنابر ثم يدعى للسلطان بعده، وأن تنقش السكة باسمهما[171].

---

[168] ابن عبد الظاهر، ص 113

[169] ابن عبد الظاهر، ص 113.

[170] ابن عبد الظاهر: 113 – 114؛ اليونيني، ج 2، ص 152. وقد نقل عنه النويري نقلا حرفيا. انظر نهاية الأرب، ج 30، ص45.

[171] النويري ، ج 28، ص 18؛ المقريزي، السلوك، ج 1، ص 453 – 457؛ الذهبي، ج 2، ص 165، انظر أيضا: العبادي، قيام دولة المماليك، ص 184.

أما أبو العباس أحمد الذي رجع إلى الشام، فقد قصد حلب كما سبق القول حيث بايعه أميرها شمس الدين البرنلي ولقبه بالحاكم بأمر الله [172] وأمده بسبعمائة فارس من التركمان [173]. فسار بهم الخليفة إلى بلدة عانة على الحدود العراقية لمناوشة التتار. ويذكر أن قطز كان قد فكر في سنة 658هـ / 1260م في إعادة الخلافة إلى بغداد فاستدعى الأمير أبا العباس أحمد إلى دمشق وبايعه بالخلافة ولكن قطز قتل قبل أن يعيد أبا العباس إلى بغداد وعاد أبو العباس إلى مقاتلة التتار على الحدود الفراتية. غير أن الحاكم انصاع - كما يذكر أبو شامة - للمستنصر بسبب

---

[172] الذهبي، ج 2، ص 165.

[173] كان "التركمان" ينتشرون في معظم أنحاء بلاد الشام، وبخاصة مناطق الفرات. "وكانوا طوائف كثيرة وجماعة كبيرة". ويعدد القلقشندي عشر طوائف من تركمان الشام. للتفاصيل انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج 7، ص 190، 282؛ ابن شاهين الظاهري: ص 104 – 105). وقد استعانت سلطنة المماليك ببعض قبائل التركمان ، ووفرت لهم الإقطاعات نظير قيامهم على حماية أطرافها من الأعداء المتاخمين وهم: الصليبيون والتتار والأرمن؛ هذا فضلا عن مهمة إخضاع القبائل التركمانية الأخرى التي كانت كثيرة الإغارة على بلاد سلطنة المماليك. واستقرت الإمرة على التركمان في الأطراف الشمالية في بيت "دلغادر" تارة وبيت "ابن رمضان" تارة أخرى. وهؤلاء أشهر طوائف التركمان. (للتفاصيل انظر: القرماني: أخبار الدول وآثار الأول – بيروت 1969، ص 329 – 340. انظر أيضا: حلمي محمد سالم: علاقات مصر الخارجية في عهد السلطان الظاهر برقوق، الإسكندرية 1976، ص 5–19. ولم تكن أملاك الإمارات التركمانية مستقرة بصفة مستديمة بسبب النزاع المستمر بينها، والذي كان ينتج عنه زيادة ونقصان في بعض هذه الأملاك. انظر: حلمي محمد سالم، المرجع السابق، ص 9 – 19. انظر أيضا: فايز نجيب اسكندر: السلطان المملوكي الأشرف خليل بن قلاوون وفتح قلعة المسلمين، الاسكندرية ، 1999، ص 30، حاشية 4.

أنه الأصغر وذاك الأكبر (أي المستنصر) ووقع الاتفاق وزال الشقاق بينهما[174].

والذي يهمنا في هذا المقام مبايعة البرنلي لأبي العباس أحمد بعد ضياع فرصة هذا الأخير في الحصول على مبايعة بيبرس. فكأنه أراد بهذه المبايعة الرد على مبايعة بيبرس لأمير عباسي آخر، والإمعان في الخروج عليه من جهة، واكتساب الشرعية لحكمه حلب من خلال التأييد المتوقع من أبي العباس أحمد اعترافا بجميله الذي أسداه إليه بمبايعته خليفة للمسلمين من جهة أخرى.

الأمير شمس الدين آقوش البرنلي والمغول

أقام البرنلي بحلب إلى أن كتب إليه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ [175] (657 - 658 هـ / 1259 – 1260م) صاحب الموصل طالبا نجدته ضد التتار [176]. وكانت الموصل آنذاك تموج بالاضطرابات والانقسامات، فانتهز القائد التتري صندغون [177] تلك الفرصة السانحة للانقضاض عليها على رأس عشرة آلاف فارس وأحكم حصارها، "ونصب عليها خمسة وعشرين منجنيقا"[178] ترمي ليلا ونهارا[179]. هذا بينما لم يكن بالموصل سلاح[180]

---

[174] أبو شامة، ذيل كتاب الروضتين، تحقيق عزت العطار الحسيني الدمشقي بعنوان "تراجم رجال القرنين السادس والسابع"، القاهرة، 1947ص 215. وانظر أيضا: العبادي: قيام دولة المماليك، ص 186.

[175] هو لؤلؤ بن عبد الله النوري الملك الرحيم بدر الدين أبو الفضائل الأرمني الأتابكي صاحب الموصل توفي سنة657هـ ، صاحب الموصل. انظر: أبو المحاسن، المنهل، ج 6، ص 375.

[176] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 20.

[177] في ابن العبري "سمداغو" (انظر: تاريخ الزمان – ترجمة إسحق أرملة – بيروت 1986 – ص 322. أما في مصنف ابن العبري الثاني فقد ورد على شكل "سمدغو" (انظر: تاريخ مختصر الدول، ص 284)، بينما في أبو المحاسن، المنهل (ج 3، ص 20) وابن أيبك، الدرة الزكية (ص 88) والمقريزي، المقريزي، السلوك (ج 1، ص 545) "صندغون"؛ وفي ابن الفوطي (ص 167) "سرداغو"، في حين أورده مؤرخ المغول رشيد الدين فضل الله الهمذاني على شكل "سنداغو نويان". انظر: جامع التوارخ، م 2، ج 1 ص 338 – 340.

[178] ابن أيبك، الدرة الزكية، ص 88؛ ابن أبي الفضائل، ص 94. انظر أيضا:
D'Ohsson, Histoire des Mongols Depuis Tchinguis - Khan Jusqu a Timour Bey Ou Tamerlan , 4 Vols, Amsterdam, 1852 t. III, pp. 370-371

تدفع به الغزاة، وطال أمد الحصار [181] إلى أن تفشت المجاعة في ربوعها [182]. وفي مواجهة تلك الضائقة، استنجد الملك الصالح بالأمير شمس الدين آقوش البرنلي "متملك حلب" وفي نفس الوقت أوفد أخويه إلى السلطان الظاهر بيبرس ليطلب الإسراع بنجدة أخيهما الملك الصالح واستجاب الظاهر لمطلبهما وانطلق جيش من مصر بقيادة الأمير شمس الدين سنقر الرومي [183]. وكان ذلك في الرابع من جمادى الأولى سنة 660هـ/ 1261م. كما أصدر أوامره إلى الأمير علاء الدين الحاج طيبرس[184] بالإسراع على رأس جيش من دمشق لنجدة الملك الصالح[185].

ولكي يثبت البرنلي حسن نواياه، ويطمئن الظاهر إلى أنه لم يخرج عن طاعته، وليكسب الشرعية في الاستحواذ على حلب بموافقة صاحب الحل والعقد السلطان بيبرس، كتب إليه "يستأذنه في التوجه لنصرته [أي لنصرة الملك

---

[179] ابن الفوطي، ص 167.

[180] ابن أيبك، الدرة الزكية، ص 88.

[181] ابن الفوطي، ص 167.

[182] أبو شامة، ج 1، ص 492؛ ابن الفوطي، 167؛ ابن أيبك، الدرة الزكية، ص 88؛ اليونيني، ج 2، ص 152؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص 284. انظر أيضا: D'Ohsson, t. III, pp. 373-374p Grousset, R., L'Empire; Des Steppes, Paris, 1939, p. 440

[183] الأمير شمس الدين سنقر بن عبد الله الصالحي النجمي، كان من عتقاء الملك الصالح نجم الدين أيوب، ومن أعيان مماليكهن ثم صار بعد موته من جملة الأمراء، ثم توجه إلى دمشق فأمسكه الناصر يوسف صاحب حلب وحبسه. انظر : أبو المحاسن، المنهل، ج 6، ص 87.

[184] طيبرس بن عبد الله، الأمير الكبير علاء الدين الظاهري البغدادي التركي، اشتراه الخليفة الحاكم بأمر الله فحظي عنده وجعله دواداره، ولما كانت الخلافة قد آلت للمستنصر بالله، قدمه ورفع قدره، فشاع ذكره. انظر أبو المحاسن، المنهل، ج 7، ص 33.

[185] المقريزي، السلوك، ج 1، ص 467 – 468، حاشية رقم 4؛ ابن عبد الظاهر، ص 114؛ النويري، ج 30، ص 45؛ أبو الفدا، المختصر، ج 3، ص 205؛ اليونيني، ج 2، ص 207؛ أبو المحاسن، النجوم، ج 7، ص 117.

الصالح][186] ، والسلطان يغلظ له وقتا، ويلين وقتا آخر" [187]، مما يؤكد براعة بيبرس السياسية في مواجهة الحركات الاستقلالية التي تواكبت وتزامنت مع الأخطار الخارجية التي أحاطت من كل جانب بسلطة المماليك التي كانت لا تزال في مرحلة الميلاد واكتساب الشرعية، والتي قامت على أنقاض الدولة الأيوبية التي كان البرنلي من مناصريها والساعين لإحيائها في بلاد الشام على وجه الخصوص. فكانت سياسة بيبرس تقوم على استخدام اللين تارة، والشدة تارة أخرى.

ودون الغوص في تفاصيل الصراع التتاري المملوكي حول الموصل [188] سنكتفي بتسليط الأضواء على دور شمس الدين آقوش البرنلي في هذا الصراع التزاما بعنوان البحث.

لقد وافق الظاهر بيبرس على خروج شمس الدين آقوش البرنلي على رأس قواته لمناصرة الملك الصالح في قتاله ضد التتار. ويمكن إرجاع موافقة بيبرس على ذلك إلى أكثر من سبب، وأول هذه الأسباب أن بيبرس ربما رأى في ذلك فرصة للتخلص من البرنلي فقد يلقى حتفه في حربه ضد التتار، والسبب الثاني أنه أراد أن يستفيد من خبرة البرنلي في قتال التتار. فقد سبق له – كما أوضحنا من قبل – أن طرد التتار من حران، وبعد أن رحل عن حران وقصد قلعة قرادي، وحاصرها إلى أن أخذها عنوة من التتار ونهبها [189]. كما أنه حين توجه إلى البيرة واستولى عليها "جعل يشن الغارات على التتار الذين هم بشرقي الفرات، "ويكبس من يستفرده

---

[186] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 20؛ النويري، ج 30، ص 45؛ ابن عبد الظاهر، 114. هذا بينما أورد ابن الفوطي أن بيبرس أرسل إلى الملك الصالح لنصرته "أميرا" اسمه الطرلك في جماعة". انظر: ابن الفوطي، ص 167.

[187] ابن عبد الظاهر، ص 114؛ النويري، ج 30، ص 45.

[188] عن تفاصيل ذلك انظر: رشيد الدين: م 2، ج 1، ص 327 – 330، ويعد أكمل وأهم المصادر على الإطلاق، إلا أنه ينحاز إلى جانب المغول. انظر أيضا: ابن أيبك، الدرة الزكية ص 88 – 89؛ أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 20؛ العيني، ج 1، ص 322؛ ابن عبد الظاهر، ص 114؛ العيني: ج 2، ص 152؛ النويري، ج30، ص 45؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص 282 – 284؛ تاريخ الزمان، ص 322؛ المقريزي، السلوك، 545؛ ابن الفوطي: ص 167.

[189] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 19.

منهم"[190] فأظهر بذلك شجاعة فائقة. أما السبب الثالث فهو أن أي انتصار يمكن أن يحرزه البرنلي على المغول سوف ينسب حتما إلى بيبرس نفسه.

وافق بيبرس إذن على خروج البرنلي إلى الموصل. غير أن موافقته كانت مشروطة، إذ أمر البرنلي "بالتربص بحران إلى أن يصل إليه العسكر السلطان لنجدة صاحب الموصل[191]، أي أن عليه عدم الانفراد بمواجهة التتار خوفا من إحراز النصر عليهم، فتزداد أطماعه التوسعية ويزداد نفوذه على حساب السلطان بيبرس. وقد أكد العيني ذلك حين أورد أن البرنلي "طمعت آماله في قصد سنجار"[192].

أما آقوش البرنلي، فقد كان يخشى من بطش السلطان ومراوغته ومكره وعدم التزامه بتعهداته ومواثيقه؛ إذ قال للأمير بدر الدين بكتاش الفخري أن هولاكو إيلخان التتار يفي والسلطان لا يفي – كما سبق القول.

ومن هذا المنطلق، احتاط البرنلي من كل خطوة يقدم عليها، خوفا من إلقاء القبض عليه أو اغتياله. فنفذ جزءا من أوامر السلطان، إذ وصل إلى حران وأقام بها، وكان عليه – لتنفيذ الأوامر كاملة – انتظار الجيش المملوكي الزاحف من مصر ودمشق، إلا أنه "خاف من العسكر السلطاني أن يقبض عليه" على حد قول أبي المحاسن بن تغري بردي[193] فتوجه إلى سنجار دون انتظار القوات المساعدة. وربما أراد الانفراد بالنصر على التتار، خاصة وأنه اعتاد قتالهم والنصر عليهم، فيؤدي ذلك بالتالي إلى ارتفاع شأنه في مواجهة السلطان بيبرس.

ويُذكر أن جيش البرنلي – حين وصل إلى سنجار[194] – كان عدته "تسع ماية فارس من حلب، وأربع ماية تركمان[195]، وماية عرب[196]. وعندما علم التتار بقرب

---

[190] العيني، ج 1، ص 322.

[191] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 20.

[192] العيني، ج 1، ص 322، وتقع سنجار غرب الموصل على نفس الخط العرضى، وهي أقرب إلى خط عرض 36 ، حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام ، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 1987، الخريطة رقم 61، ص 113.

[193] أبو المحاسن، المنهل، ج 3 ، ص 20.

[194] شافع بن علي، ص 46. ويؤخذ عليه القول أن التتار تملكوا من قبله. وهذا يتعارض مع كافة المصادر الإسلامية. و"سِنْجار" بالكسر، ثم السكون، ثم جيم، وآخره راء: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة في لحف جبل. انظر: البغدادي، ج 2، ص 743.

وصول نجدات إلى الملك الصالح من مصر ودمشق، وطال أمد الحصار رأى سنداغو [صندغون] أن القتال والزحف لا يجديا نفعا وأمسك عن ذلك" [197]. وتطرق اليأس إلى قلب التتار وقائدهم، وعزموا على ترك حصار الموصل والهرب، لولا وصول "الزين الحافظي" موفدا من قبل هولاكو لتشجيع المقاتلين على استمرار الحصار، وأخبرهم أن جيش البرنلي "شرذمة يسيرة" [198] وأنه لا يقوى على مواجهة جيش التتار، وأن المصلحة تقضي ملاقاته [199]. وأورد مؤرخ التتار رشيد الدين أن هولاكو حين علم بصمود أهل الموصل أسرع بإرسال جيش لإمداد سنداغو نويان[201] [صندغون]. فتشجع التتار على مواصلة إحكام حصارهم لسنجار. وكان البرنلي عندما بلغ سنجار قد كتب رسالة إلى الملك الصالح أمير الموصل يخبره بوصوله، وربطها في جناح حمامة وأطلقها إليه. إلا أن الحمامة حطت على منجنيق التتار، فأمسكها المنجنيقي، وحمل الرسالة إلى صندغون [202]. فلما قرأها عد ذلك من إمارات إقباله، فسير على الفور عشرة آلاف جندي[203] خص كل فرد منهم ثلاثة من الجياد. وبالقرب من سنجار انقسموا إلى ثلاث فرق، وينفرد العيني بالقول إن المغول أعدوا كمينا للبرنلي[204] الذي لم يحسب للكمين حسابا وطاردوا جيشه[205].

---

[195] فاني، الأشرف خليل، ص 30، حاشية 4.

[196] ابن أيبك، الدرة الزكية، ص 88؛ أبو المحاسن، المنهل،ج 3، ص 21. هذا بينما أورد النويري أن البرنلي "كان معه نحو ألف فارس" بينما كان التتار "في جموع كثيرة"؛ انظر: ج 30، ص 45.

[197] ابن الفوطي، ص 167.

[198] ابن أيبك، الدرة الزكية، ص 88.

[199] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 20.

[200] جامع التواريخ، م 2، ج 1، ص 328.

[201] نويان" كلمة مغولية تعني قائد تومان يبلغ عدته عشرة آلاف مقاتل. انظر: Howorth, History of the Mongols, London, 1975, t. III, p.152.

[202] رشيد الدين، م 2، ج 1، ص 328 – 329؛ ابن الفوطي، ص 167.

[203] رشيد الدين، م 2، ج 1، ص 329؛ أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 20.

[204] انفرد العيني بالقول: "كمن له التتار وهو لا يشعر". انظر: عقد الجمان، ج 1، ص 322. بينما سجل أبو المحاسن تردد البرنلي في قتال التتار. انظر: أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 21.

وهكذا استعد الجمعان للقتال وكان اللقاء يوم الأحد الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة 660هـ/ 1261م[206]. فثبت جيش البرنلي وقاوم التتار [207] ، إلا أن هبوب الرياح العاصفة فجأة جاء لصالح التتار، إذ ألقت الرمال والحصى في عيون الشاميين، فعجزوا عن القتال[208] وأحاط بهم التتار "وقتلوهم جميعهم، وكسبوا ما معهم من الخيل والسلاح وغير ذلك"[209]. كما فر الباقون وقتلوا كثيرا من أهل سنجار وأسروا النساء والأطفال[210]. وكان من بين القتلى بعض كبار قادة جيش البرنلي ومن بينهم سنجر الناصري[211] . كما أسر علم الدين جلم [212] وولده، وبكتوت الناصري [213]. واعترفت المصادر الإسلامية أن البرنلي والأمراء العزيزية والناصرية "قاتلوا قتالا شديدا" [214] حتى أن متملك حلب "سقط عن فرسه فانكسرت رجله، وركبه أحد مماليكه وساق يوما كاملا، ولم يعلم من معه أن رجله كسرت"[215].

---

[205] رشيد الدين، م 2، ج 1، ص 329.

[206] ابن أيبك، الدرة الزكية ص 88.

[207] أبو المحاسن، المنهل، ج 3 ، ص 21.

[208] رشيد الدين، م 2، ج 1، ص 329.

[209] ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص 284.

[210] رشيد الدين، م 2، ج 1، ص 329.

[211] سنجر بن عبد الله الدواداري الناصري، الأمير علم الدين أبو محمد. كان من أعيان أمراء الملك المنصور قلاوون، وولده الشرف خليل ن قال عنه ابن الزملكاني "أمير جليل مشهور بالعقل الوافر والديانة. انظر: أبو المحاسن، المنهل، ج 6، ص 78 . وقتل في هذه المعركة أيضا من قادة البرنلي علم الدين الزوباشي وعز الدين أيبك السليمانى، لمزيد من التفاصيل انظر: العيني، ج 1 ، ص 23؛ ابن ايبك، الدرة الزكية ص 88.

[212] ابن أيبك، الدرة الزكية ص 88. وفي العيني (ج 1، ص 322). علم الدين حكم الأشرفي.

[213] ابن أيبك، الدرة الزكية، ص 88، وبكتوت الناصري هو بكتوت بن عبدالله العزيزي، الأمير سيف الدين، استادار الملك الناصر يوسف صاحب حلب. كان ذا حرمة وافرة، ورتبة عالية، ومهابة شديدة، وله إقطاعات ضخمة. انظر: أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 410.

[214] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 21؛ نهاية الأرب، ج 30، ص 45؛ المقريزي، السلوك، ج 1، ق 2، ص 471.

[215] النويري، ج 30، ص 45؛ أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 21.

وبعد هزيمة جيش البرنلي، ارتدى التتار الملابس الشامية، وأطلقوا شعورهم جريا على عادة الأكراد ثم توجهوا إلى الموصل، فخرج سكانها ظانين أنهم شاميون جاءوا لإمدادهم، فأقاموا الأفراح بهذه المناسبة فما كان من جنود التتار إلا أن أحدقوا بهم من كل جانب، ولم يتركوا واحدا منهم حيا، وظلوا يحاربون مدة ستة أشهر، ونتج عن ذلك انتشار القحط والأوبئة بالمدينة واشتد بهم الأمر حتى أكلوا الميتة ولحوم الكلاب[216] وتوجه الناس إلى الصحراء بسبب الجوع فساروا طعمة لسيوف التتار [217]. وهكذا كانت تلك الأحداث من تبعات هزيمة البرنلي وانعكاساتها على سكان الموصل.

ومن الغريب أن المصادر لا تذكر شيئا عما كان من أمر الجيش الذي انطلق من مصر تحت قيادة الأمير شمس الدين سنقر الرومي في الرابع من جمادى الأولى سنة 660 هـ / 1261م، أو الجيش الذي انطلق من دمشق تحت قيادة الأمير علاء الدين الحاج طيبرس لنجدة الملك الصالح بناء على أوامر بيبرس. فهل كان هذان الجيشان في الطريق عندما انهزم البرنلي أمام المغول في الرابع عشر من جمادى الآخرة، أي بعد أربعين يوما من انطلاقهما من القاهرة ودمشق، فبلغتهما أنباء الهزيمة التي مني بها البرنلي وعادا أدراجهما؟ أم أن الجيشين وصلا بعد فوات الأوان؟ أم أن قائدي الجيشين تلقيا أوامر من بيبرس بعدم الانضمام إلى البرنلي حتى ينفرد به المغول فيتخلص منه بيبرس بهذه الطريقة عقابا له على عدم الالتزام بأوامره والانتظار حتى يأتيه العسكر السلطاني المرسل لنجدة صاحب الموصل؟ سؤال لم تجب عليه المصادر، ولكنه يلقي بظلال كثيفة على موقف بيبرس.

والمتأمل في نتائج هذه المعركة يجد أن أسبابا متعددة قد تضافرت وأدت إلى هذه الهزيمة لجيش البرنلي الذي لم يصل إلى الموصل كما كان مقررا ، بل اضطر إلى القتال عند سنجار التي تقع على مقربة من الموصل. ولعل أول أسباب هذه الهزيمة وقوع رسالة البرنلي إلى الملك الصالح في يد القائد المغولي صندغون الذي استفاد من المعلومات الواردة فيها، والمعلومات التي أرسلها هولاكو إليه عن ضآلة عدد جيش البرنلي، فأرسل عشرة آلاف جندي لمقاتلة جند البرنلي التسعمائة. غير أن هبوب الريح التي ألقت بالرمال والحصي في عيون قوات البرنلي كان سببا آخر أشد تأثيرا في التعجيل بهزيمة هذه القوات، إذ عجزت هذه القوات عن مواصلة القتال فقتل من قتل وفر من فر. ويبقى سبب آخر للهزيمة هو عدم التكافؤ بين الجيشين المغولي بقيادة صندغون، والشامي بقيادة البرنلي، من الناحية العددية. فأنى لتسعمائة من

---

[216] ابن الفوطي، ص 167.

[217] رشيد الدين، ص 329.

الجنود بمنازلة عشرة آلاف رجل من المقاتلين المغول الأشداء زود كل منهم بثلاثة خيول؟ إن هذا الموقف يعود بالباحث إلى التساؤل الذي طرحه في الفقرة السابقة عن جيشي كل من شمس الدين سنقر الرومي وعلاء الدين الحاج طيبرس. ولا شك أن تأخر وصول هذين الجيشين، أو عدم وصولهما بالمرة، كان من الأسباب التي حسمت التفوق العددي في المعركة لصالح جنود صندغون. وأخيرا، فقد يطرح سؤال عن دور مقاومة سكان مدينة سنجار في مواجهة المغول. وللإنصاف فإن طول أمد حصار المغول لهذه المدينة، وقرار صندغون بالتخلي عن حصارها يأسا من الاستيلاء عليها هما خير دليل على بسالة وصمود أهل هذه المدينة. ولولا تشجيع مبعوث هولاكو لصندغون وطمأنته إلى ضآلة شأن جيش البرنلي، أو إرسال هولاكو فعلا لجيش لإمداد صندغون حسب رواية رشيد الدين، ووقوع رسالة البرنلي إلى الملك الصالح في يد القائد المغولي، لعاد المغول أدراجهم دون أن ينالوا من سنجار. بل إنهم عندما دخلوا المدينة ونالوا منها بعد هزيمتهم للبرنلي وجيشه، دخلوها بالخديعة وليس بالقتال فتنكروا في ملابس الجنود الشاميين حتى اطمأن إليهم أهل المدينة وخرجوا ، وظلوا يقاتلونهم طيلة ستة أشهر حتى انتشرت الأمراض وأجبرهم الجوع على الخروج إلى سيوف المغول. فلا مجال إذن للحديث عن غياب دور مقاومة المدينة للمغول.

وعقب انكسار آقوش البرنلي على هذا النحو، "ضاقت به البلاد، ولم يبق بيده سوى البيرة"[218] فعاد إليها وبصحبته جماعة من الأمراء العزيزية والناصرية. وهناك فارقه أكثرهم وساروا إلى مصر [219]. فتوالى وصولهم إليها وأحسن إليهم السلطان، "ولم يؤاخذ أحدا شئ مما جرى"[220].

وما إن دخل آقوش البرنلي مدينة البيرة حتى وفد عليه مبعوثو إيلخان التتار هولاكو وكان من بينهم ابن خاله وزين الدين قراجا الناصري أمير جاندار [221] وطلبوا

---

[218] أبو الفدا، المختصر ، ج 3، ص 214. انظر أيضا: Abou'l Feda, p. 148

[219] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 21؛ ابن أيبك، الدرة الزكية، ص 88؛ العيني، ج1، ص 322؛ المقريزي، السلوك، ج 1، ق 1، ص 471.

[220] ابن عبد الظاهر، ص 128 – 129؛ المقريزي، السلوك، ج 1، ق 1، ص 471

[221] "أمير جاندار" كلمة مركبة من ثلاثة ألفاظ "أمير" وهو عربي، "جان" ومعناه الروح بالفارسية، و"دار" ممسك الروح؛ والمراد به الحافظ لدم السلطان، فلا يأذن عليه إلا لمن يأمن عاقبته. وكانت مهمة حامل هذا اللقب أن يستأذن على الأمراء وغيرهم في أيام المواكب عند الجلوس بدار العدل.

من البرنلي السير إلى هولاكو "ليقطع له البلاد من جهته" لكنه رفض مطلبهم [222]. والواقع أن رفض البرنلي لمطلب مبعوثي هولاكو يمكن أن يحسب له من منظور الصراع الإسلامي المغولي، وإن كان يتناقض مع ما قاله من قبل للأمير بدر الدين بكتاشي الفخري حين حمل إليه رسالة من بيبرس لموادعته " أنا أعلم أن هولاكو يفي، وأن السلطان لا يفي"[223] . وربما أراد البرنلي بقوله هذا مجرد التأكيد على عدم ثقته في وعود بيبرس.

وهكذا نجح التتار في اجتياح مدينة الموصل في رمضان سنة 660هـ/ 1261م وقتلوا بقية سكانها بحد السيف، وأسروا بعضا من أرباب الحرف والصنائع بحيث لم يبق أحد فيها. فلما رحل التتار عنها، خرج ما يقرب من ألف شخص من بين الجبال والمغارات وتجمعوا[224].

وبعد انتصار صندغون على شمس الدين آقوش البرنلي، عاد إلى الموصل، وأدخل بعض الأسرى من عسكر الأمير الشامي المهزوم من الثقوب إلى داخل مدينة الموصل ليعرفوا الملك الصالح إسماعيل بهزيمة حليفه الذي جاء لنجدته، ويشيروا عليه بالدخول في طاعة التتار[225]، ووعدوه بوعود حسنة. ونسي الصالح أن من عادة التتار النكث بوعودهم. فبعد أن فتحت المدينة أبوابها، استباحوها. وفي أواخر شوال سنة 660هـ/ 1261م عاد التتار إلى بلادهم وبصحبتهم الملك الصالح الذي قتل في الطريق قبل أن يمثل أمام هولاكو[226].

ومن الجدير بالتسجيل أن محيي الدين بن عبد الظاهر كاتب ديوان الإنشاء في عهد السلطان الظاهر بيبرس وصاحب مصنف "الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر" والذي يعد المصدر الذي نقل عنه أكثر المؤرخين المسلمين المعاصرين

ويطوف بالزفة حول السلطان في سفره. للتفاصيل انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج 4، ص 19؛ ج 5، ص 461. انظر أيضا: شرافع بن علي، ص 44.

[222] ابن أيبك، الدرة الزكية، ص 88.

[223] النويري، ج 30، ص 59

[224] رشيد الدين، ص 330؛ الذهبي، ج 2 ، ص 165.

[225] ابن أيبك، الدرة الزكية، ص 89

[226] للتفاصيل انظر: ابن أيبك، الدرة الزكية، ص 89 – 90؛ ابن العبري، تاريخ الزمان، ص 322؛ تاريخ مختصر الدول، ص 284؛ ابن الفوطي، ص 167 – 168؛ المقريزي، السلوك، ج 1، ص 545؛ المفضل بن أبي الفضائل، ج 1، ص 94. انظر أيضا: D'Ohsson, t. III, p. 374; Howorth, t. III, p 181.

وغير المعاصرين[227] قد أهمل تتبع انتفاضة المتغلب على البلاد الشامية، وكان من الطبيعي أن يتحامل عليه بشدة، فسجل في مصدره أن أهل سنجار - بعد رحيله عنها بعيد هزيمته - صاروا "يدعون عليه لما فعله معهم من نهب الأموال وإخراب البيوت" بينما كان عليه، إذا كان يبتغي النصر على التتار – حسب ما أورده ابن عبد الظاهر – أن يطيب القلوب، ويبتهل بالأدعية، ويبسط العدل "ولا أفلح من ظلم، ولا نُصر من دُعي عليه"[228].

محاولات بيبرس ترويض البرنلي

عندما غادر البرنلي حلب على رأس جيشه لنجدة الملك الصالح أمير الموصل، تسلمها نواب علاء الدين البندقداري. ثم أصدر السلطان بيبرس مرسوما بتوجه علاء الدين إليها[229]. وأثناء إقامة البرنلي في البيرة، راسله السلطان الظاهر، وعرض عليه الدخول في طاعته، ووعده بالإحسان إلا أن المتغلب على البلاد الشامية رفض مطلب سيده. (وربما كان البرنلي يصدر في موقفه هذا عن شعور بالقوة لا نجد في المصادر ما يبرره، خاصة وأن أكثر من كان معه من العزيزية والناصرية فارقوه وتوجهوا إلى بيبرس وربما بقيت معه قوات كبيرة من غير العزيزية والناصرية) فما كان من بيبرس إلا أن جهز جيشا لقتاله، وأسند قيادته للأمير جمال الدين المحمدي[230]. فسار إليه والتقيا، وكان النصر حليف البرنلي. الذي تمكن من أسر

---

[227] قارن على سبيل المثال* ابن عبد الظاهر، ص 192 – 193، * مع النويري، ج 30، ص 88؛ ابن عبد الظاهر، ص 166 – 170 مع النويري، ج 30، ص 84 – 87 ؛ ابن عبد الظاهر، ص 134 مع النويري، ج 30، ص 60 * ابن عبد الظاهر، ص 192، مع بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، ص 105 * ابن عبد الظاهر، ص 81، مع شافع بن علي، ص 46 * ابن عبد الظاهر، ص 193، مع المقريزي، السلوك، ج 1، ق 2، ص 510 ابن عبد الظاهر، ص 194، مع المقريزي، السلوك، ج 1، ق 2، ص 511؛ ابن عبد الظاهر، ص 272، مع المقريزي، السلوك، ج 1، ق 2، ص 555 * ابن عبد الظاهر ص 270، مع ابن أيبك، الدرة الزكية، ص 140 ح ابن عبد الظاهر، ص 269 – 270، مع ابن بهادر، فتوح النصر في تاريخ ملوك مصر – مخطوط بدار الكتب المصرية – رقم 4977 تاريخ – جزءان – ج 1، ورقة 109.

[228] ابن عبد الظاهر، ص114

[229] أبو المحاسن، النجوم، ج 7، ص 117 – 118.

[230] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 23، ترجمة جمال الدين المحمدي. وقد أوجز العيني تلك الأحداث بالقول "... كسرهم وسلبهم، وأرسلهم على تلك الحال". انظر: العيني، ج 1، ص 359.

المحمدي ومن معه. ولعل في انتصار البرنلي على جمال الدين المحمدي دليلا على قوة البرنلي العسكرية رغم انفضاض أكثر العزيزية والناصرية عنه. ومما يؤيد ذلك أيضا أن البرنلي أطلق سراح الأمراء وأنعم على كل واحد منهم فرسا واحدا، أما بقية الأجناد، فقد أطلقهم رجاله[231].

وعقب تلك الهزيمة التي علم بها بيبرس حين حضر إليه المهزومون "عدل عن مقاتلته إلى مخاتلته"[232] . وهكذا تبدلت سياسة بيبرس القائمة على مقاتلة البرنلي إلى موادعته ومهادنته. وقد عبر عن ذلك العيني حين ذكر أن السلطان "أرسل إليه يعده الإحسان ويستجلبه بصوغ اللسان" [233] بينما كان فيما مضى "... يرهبه، ويضيق عليه المجال" [234]أصبح "يبسط له الآمال" [235]. وبالفعل طلب البرنلي الدخول في طاعة السلطان، فوافق على مطلبه فخرج من البيرة في 19 رمضان سنة 660هـ/ 1261م[236]، وسار إلى دمشق، وأحسن إليه بيبرس، وأرسل إليه الأدوية اللازمة لعلاج الإصابة التي لحقت برجله أثناء قتاله التتار. كما سير إليه الأمير بدر الدين بكتاش، أمير سلاح [237]،

---

[231] العيني، ج 1، ص 322 – 323.

[232] العيني، ج 1، ص 323 .

[233] العيني، ج 1، ص 322 – 323.

[234] ابن عبد الظاهر، ص 133 – 134.

[235] ابن عبد الظاهر، ص 134.

[236] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 21. وأضاف أبو المحاسن أن البرنلي "اجتمع بالبندقداري نائب حلب بعد أن تحالف كلاهما بالإيمان [وصحتها الأمان].

[237] أمير سلاح" هو المكلف بحمل السلاح للسلطان في المجامع الجامعة، والمتحدث في السلاح خانة السلطانية وما يستعمل بها وما يقدم إليها ويطلق منها. ويأتي في المرتبة الخامسة بين الوظائف العسكرية الكبرى في قصر السلطان المملوكي. ثم ارتقى حتى أصبح يلي أتابك العساكر مباشرة. وهو من أمراء المئين. انظر: ابن شداد، ص 73، ح 3. انظر أيضا: أحمد عبد الرازق: الرزوك الإسلامية – القاهرة 2001م – ص 39.

حاملا رسالة "وشافهه باليمين" [238] وكلفه باستقباله [239] ومن معه من الأمراء العزيزية حين وصولهم إلى القاهرة[240] وأبدى اهتمامه العظيم به.

البرنلي في مصر

دخل الأمير شمس الدين آقوش البرنلي القاهرة،عاصمة سلطنة المماليك، في ثاني ذي الحجة سنة 660هـ/ 1261م [241]. وركب السلطان بيبرس لاستقباله أحسن استقبال "وسير إليه من المال والخلع والقماش والخيول والبيوتات شيئا لعله يكون خزانة ملك"[242]وعامله معاملة كبار أمراء سلاطين المماليك[243] كما أكرم السلطان كل من وصل معه من الأمراء العزيزية [244] وغيرهم كلا على قدر منزلته [245] وهكذا بفضل كرم السلطان بيبرس تحول البرنلي إلى أحد كبار الأثرياء حتى "فاض على غلمانه" على حد قول محيي الدين بن عبد الظاهر[246].

---

[238] النويري، ج 30، ص 59.

[239] ابن عبد الظاهر، ص 134.

[240] ابن عبد الظاهر: ص 134. وفي النويري "... ولما وصل إلى دمشق، كتب السلطان إلى النواب بخدمته وتهيئ الإقامات له في جميع الطرقات والمنازل إلى أن يصل إلى القاهرة". انظر: نهاية الأرب، ج 30، ص 59.

[241] في أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 21: "ودخل البرنلي القاهرة في غرة ذي الحجة من السنة [أي سنة 660هـ] بينما في ابن عبد الظاهر: 34، والعيني ج 1، ص 395 ، والنويري، ج 30، ص 60: "في ثاني ذي الحجة". بينما يؤخذ على المقريزي قوله "... وسار إلى القاهرة فدخلها أول ذي القعدة". انظر: المقريزي، السلوك،ج 1، ص 545. وقد صحح هذا الخطأ في مخطوطه "التاريخ المقفى" – مادة أقوش البرلي – إذ أورد "... قدم القاهرة في ثاني ذي الحجة سنة ستين وستمائة".

[242] ابن عبد الظاهر، ص 134؛ النويري، ج 30، ص 60.

[243] في هذا المعنى يقول أبو المحاسن: ولم يترك شيئا مما يحتاجه الأمراء إلا وسيره إليه". انظر: أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 134.

[244] انفرد العيني بذكر الأمراء العزيزية. انظر: عقد الجمان، ج 1، ص 359.

[245] ابن عبد الظاهر، ص 134؛ العيني، ج 1، ص 359.

[246] ابن عبد الظاهر، ص 134.

ولم يكتف بيبرس بما تقدم، بل أقطع البرنلي – بموجب منشور سلطاني – إمرة سبعين[247]فارسا وأعطاه طبلخاناه، كذلك أمَّر الأمراء المصاحبين له وأحسن إليهم[248].

وبعد استقرار أمور البرنلي بمصر، أرسل إلى السلطان كتابا يطلب فيه "زيادة في الشام [أي دمشق]، أو في نابلس، أو بلاد الصلت [249] ، أو بلاد بعلبك، أو في حران، مقابل تنازله عن البيرة، لعدم قدرته على الاحتفاظ بها، فشكره بيبرس ولم يقبلها منه إلا بعد تكرار طلبه، وعوضه عنها بالرها[250] وغيرها[251]، إذ قال السلطان للبرنلي في أول عرض له "أنا أرجو لك الزيادة"[252] . ووصلت الصداقة الحميمة بين السلطان الظاهر والمتغلب على البلاد الشامية مداها بعد أن صار السلطان يقربه، وأصبح يرافقه إذا ركب، ويستشيره في مجالسه "ولسانه إذا قال، ويده إذا صال، وساهمه في كل شئ حتى فيما يكون بين يديه مما يستطرف". ووصلت الصداقة الحميمة بين السلطان وأميره مداها حتى أصبح "لا يفارقه في صيد ولا غيره"[253]

انقلاب البرنلي على بيبرس واعتقال بيبرس له

---

[247] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 21؛ المقريزي، السلوك، ج 1، ص 545. وفي ابن عبد الظاهر، ص 134 ، والنويري، ج 30، ص 60، الذي نقل عنه نقلا حرفيا "كتب له منشورا بسبعين فارسا". كذلك العيني، ج 1، ص 359، الذي أورد: "ولما وصل [أي البرنلي] أعطاه سبعين فارسا".

[248] ابن عبد الظاهر، ص 134؛ النويري، ج 3، ص 60؛ ابن شداد، ص 287.

[249] تقع "الصلت" مقابل أريحا على غور الأردن، جنوبي عجلون. انظر: أبو الفدا: تقويم البلدان – نشره رينو ودي سلان – باريس 1840، ص 245.

[250] الرها مدينة بالجزيرة فوق حران، بينهما ست فراسخ. قيل اسمها بالرومية إداسا Edessa، البغدادي، ج 2، ص 644.

[251] ابن عبد الظاهر، ص 134. وقد نقل عنه كل من النويري، ج 30، ص 60؛ والعيني (بتلخيص) ج 1، ص 359.

[252] ابن عبد الظاهر: ص 134؛ النويري: ج 30 ص 60 نقلا عن ابن عبد الظاهر.

[253] ابن عبد الظاهر، ص 134؛ النويري، ج 30، ص 30 نقلا عن ابن عبد الظاهر. وقد أوجز كل من العيني وبيبرس الدوادار ما أورده ابن عبد الظاهر في الآتي "... وقربه وأدناه، واتخذه سميرا وأنيسا ونديما". فكان بارعا في إيجازه انظر: العيني، ج 1 ص 359؛ بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، ص 94.

ولكن الأمير شمس الدين آقوش البرنلي لم يحفظ هذا الجميل والإحسان من جانب بيبرس. فقد حدث آنذاك أن سافر السلطان الظاهر إلى الطور[254] فاصطحبه معه، وكان السلطان يفتقده طول الطريق بأنواع الإحسان[255]. ومع ذلك فإن هذا الأمير المتمرد لم يعرف حدا لطموحاته وذلك رغم هزيمته أمام التتار التي لم يكن قد ضمد جراحه منها بعد. إذ يذكر أبو المحاسن أنه "اتفق مع جماعة أن يملكوه" فكان ذلك أعظم الدواعي إلى القبض عليه مع أمور أخر... وقيل أنه سجن بقلعة الجبل"[256] وكان ذلك في 19 رجب سنة 661هـ / 1262م[257].

ورغم خيانته، فقد أحسن بيبرس إلى أهله وأولاده، وقرر لهم الرواتب، واستمر بإقطاعهم في مصر [258]. والملاحظ أن محيي الدين بن عبد الظاهر زودنا بتفاصيل أكثر مما أورده أبو المحاسن بن تغري بدري، إذ ذكر تحت عنوان "ذكر السبب في إمساك الأمراء الرشيدي، والبرلي، والدمياطي" أن السلطان الظاهر بيبرس كان قد فوض أمر المملكة أثناء غيابه إلى الأمير سيف الدين بلبان الرشيدي الصالحي "فأقبل على اللهو وشرب الخمر وحمت حواشيه عدة بلاد، وحدثت منه

---

[254] "الطور" جبل مطل على طبرية الأردن، البغدادي، ج 2، ص 896.

[255] ابن عبد الظاهر، ص 135؛ النويري، ج 30، ص 60.

[256] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 21. وفي العيني، ج 1، ص 359: "قبض عليه ثاني يوم دخوله القاهرة من سفر الكرك والطور. و"قلعة الجبل" مقر السلطان، بناها الطواشي بهاء الدين قراقوش للملك صلاح الدين بن ايوب. للتفاصيل انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج 3، ص 368 – 370.

[257] المقريزي، السلوك، ج 1، ص 557؛ التاريخ الكبير المقفى – مادة أقوش البرلي، أحداث 661هـ . واكتفت مصادر أخرى بذكر إلقاء القبض عليه "في شهر رجب سنة إحدى وستين". دون تحديد اليوم. انظر: ابن عبد الظاهر: ص 135؛ أبو الفدا، المختصر، ج 3، ص 214؛ ابن الوردي، ج 2، ص 208؛ العيني، ج 1، ص 360؛ وفي أبي المحاسن: "... في يوم السبت سادس عشر شهر رجب، لما دخل [الملك الظاهر] القاهرة قبض على الأمير بلبان الرشيدي وأيبك الدمياطي وآقوش البرلي". انظر: أبو المحاسن، النجوم، ج 7، ص 120. بينما لم يحدد أبو المحاسن إلا سنة القبض عليه (في سنة 661هـ) في المنهل، ج 3، ص 21.

[258] ابن عبد الظاهر، ص 135، 170؛ النويري، ج 30، ص 87؛ المقريزي، السلوك، ج 1، ص 557.

أمور لا تسر...."[259] فتغاضى السلطان عن ذلك [260]، إلا أن بيبرس بلغه أن الرشيدي كتب إلى الملك المغيث ملك الكرك كتابا يقول له فيه "لا تحضر إلى السلطان فإنه يريد أن يمسكك"[261]. وبعد ذلك أرسل الرشيدي إلى أهل الكرك[262] كتابا يقول لهم فيه أنه "يحسن لهم التوقف عن التسليم ويعرض عليهم الاتفاق معهم على أن يحضر إليهم هو ويتسلمها، ويحفظها لهم، ويكون هو عونا لهم، ويتفق معهم على إفساد الحال كله"[263] وكان كتابه هذا بعد تمكن بيبرس من إلقاء القبض على الملك المغيث[264].

أمام أطماع الرشيدي في الاستيلاء على الكرك ومناصرة كل من الأمير شمس الدين آقوش البرنلي والأمير عز الدين الدمياطي له كان من الطبيعي أن يتحرك بيبرس لإفشال هذا المخطط الانفصالي الذي يحرص أهل الكرك على الثورة على السلطان والامتناع عن تسليمه مدينتهم خاصة وأن الرشيدي قد عبأ "ثلاثمائة فارس من مماليكه، والدمياطي والبرنلي" [265] ومن اللافت للنظر أن هذه المؤامرة جمعت بين البرنلي ورجلين سبق لبيبرس أن أرسلهما لقمع تمرده ومحاولته التغلب على حلب هما بلبان الرشيدي وعز الدين الدمياطي. فهكذا كان شأن المماليك دائما. فما كان أسهل أن يتحول أعداء الأمس إلى أصدقاء اليوم ورائدهم في ذلك جميعا المصلحة الشخصية ولا شيء سواها وتأكد السلطان من مؤامرة الرشيدي حين استدعى الأمير شمس الدين سنقر الرومي وسأله: "ما الذي رأيت؟" فقال: "جماعة ما جاءوا في خير"[266]. وحدث أن اقترب الرشيدي من السلطان الظاهر وكان مكانا غير مخصص له وبالقرب منه وقف الدمياطي، والبرنلي. إلا أن الأمير عز الدين أوغان الركني[267] نجح في تفريقهم بطريقة مازحة[268]. وقد انفرد شافع بن على بذكر أن هدف

---

[259] المقريزي، السلوك،ج 1، ص 557؛ ابن عبد الظاهر، ص 166؛ النويري، ج 30، ص 84.

[260] ابن عبد الظاهر، ص 166.

[261] ابن عبد الظاهر، ص 167؛ النويري، ج 30، ص 85.

[262] "الكرك" قلعة حصينة في طرف الشام، من نواحي البلقاء في جبالها. تقع بين أبلة وبحر القلزم وبيت المقدس، وهي على جبل عال. البغدادي، ج 3، ص 1159.

[263] ابن عبد الظاهر، ص 167؛ النويري، ج 30، ص 85؛ المقريزي، السلوك، ج 1، 558.

[264] المقريزي، السلوك، ج 1، 558

[265] ابن عبد الظاهر، ص 168؛ النويري، ج 30، ص 86.

[266] النويري، ج 30، ص 86.

[267] عز الدين أوغان الركني "سم الموت": أيفان بن عبد الله الركني، الأمير عز الدين، أصله من مماليك ركن الدين بيبرس، كسر الفرنجة بغزة، وصار له الكلمة النافذة والحرمة الزائدة، ودام على

تحالف الأمراء الثلاثة كان اغتيال السلطان الظاهر بيبرس، وكان توقيت عملية الاغتيال وقت صلاة الصبح وكان "هو [أي الرشيدي] والدمياطي والبرلي في جماعة كبيرة" لكن المؤامرة فشلت[269]. وهكذا تأكد السلطان الظاهر بيبرس من المؤامرة التي ضمت الأمراء الثلاثة، كما شعر أيضا بضعف طاعتهم له وتحريضهم الآخرين عليه. وقمعا لتلك الحركة الانفصالية التي استهدفت أيضا تصفيته جسديا، استدعى السلطان الأمير سيف الدين بلبان الرشيدي واعتقله. وفي اليوم التالي أمسك بالأمير عز الدين الدمياطي والأمير شمس الدين آقوش البرنلي[270]

وأمضى المتغلب على البلاد الشامية بقية حياته سجينا إلى أن توفي سنة 668هـ/1269م، ودفنت معه أحلامه وطموحاته التي لم يكن يحدها شئ. فمشاركته في مؤامرة اغتيال السلطان بيبرس والتي أكدها المؤرخ المعاصر شافع بن علي [271] إبن أخت محيي الدين بن عبد الظاهر، وكذا أبو المحاسن بن تغري بردي [272] تؤكد تخطيطه للتربع على عرش سلطنة المماليك في مصر والشام [273]. ولم لا، وقانون الترك – أي المماليك – يقضي بأن "من قتل الملك كان هو الملك [274]". وكان الظاهر بيبرس أول من طبق هذا القانون في عهد سلطنة المماليك البحرية عندما اغتال قطز.

تحليل شخصية البرنلي في ضوء الواقع التاريخي

تشكل الأحداث التي عرض لها الباحث فيما سبق – في مجموعها - إطارا عاما لصورة الأمير شمس الدين آقوش البرنلي يمكن من خلاله رصد الملامح الرئيسية

ذلك مدة طويلة إلى أن بلغ الملك الظاهر عنهما أوغر خاطره عليه فأمسكه وحبسه بالقلعة. انظر : أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 187 و 539؛ أبو المحاسن، النجوم، ج 7، ص 406.

[268] ابن عبد الظاهر، ص 168– 169؛ الزهيري، ج 30، ص 86.

[269] شافع بن علي، ص 63.

[270] ابن عبد الظاهر، ص 168 – 170؛ النويري، ج 30، ص 86 – 87؛ شافع بن علي، ص 62؛ أبو المحاسن، النجوم، ج 7، ص 120. والملاحظ أن النويري نقل عن محيي الدين بن عبد الظاهر أحداث تلك المؤامرة الثلاثية. قارن: الروض الزاهر، ص 166 – 170. مع نهاية الأرب، ج 30، ص 84–87.

[271] شافع بن علي، ص 63.

[272] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 21.

[273] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 14، 21؛ شافع بن علي، ص 63.

[274] شافع بن علي، ص 32.

لهذه الشخصية الفريدة في طموحها الذي لم يعرف الكلل إلى التملك ونزوعها الفطري إلى السلطة. ونعرض فيما يلي لأهم هذه الملامح.

البرنلي وطبيعة العصر:

عاش الأمير شمس الدين آقوش البرنلي في فترة فاصلة بين عصرين من أهم عصور التاريخ الإسلامي: عصر أيوبي آذن نجمه بأفول، وعصر مملوكي لاحت بشائره في سماء الشرق الإسلامي، وذلك قرب نهاية النصف الأول من القرن السابع الهجري التي وافقت نهاية النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي.

أما العصر الأيوبي فقد كان عصر انقسام وحروب لا تنتهي بين خلفاء الناصر صلاح الدين مؤسس الأسرة[275]. وكانت السمة الغالبة على ذلك العصر هي الإكثار من شراء المماليك وتدريبهم ليكونوا عدة وسندا لأمراء بني أيوب الذين اتخذوا ألقاب الملوك في البلدان الكثيرة التي كانوا يحكمونها. [276] وكان لابد والحال كذلك أن تزداد قوة المماليك ويزداد نفوذهم. وكانت طبيعة ذلك العصر في حد ذاتها رسالة موجهة إلى المماليك من أمثال شمس الدين آقوش البرنلي الذي فهم الرسالة تماما واستوعب مضمونها كل الاستيعاب. كيف لا وهو الرجل الذي أثبتت الحوادث دوما أنه رجل ذكي شديد الذكاء، طموح شديد التطلع إلى الأعالي، قوي، واثق من نفسه، معتد بها كل الاعتداد.

وأما العصر المملوكي، فقد كانت الحوادث الدامية العنيفة التي اكتنفت بداياته الأولى - وتحديدا: السنوات العشر الأولى من ذلك العصر من سنة 648 هـ / 1250م إلى سنة 658 هـ / 1260م - من مقتل السلطان تورانشاه على يد المماليك البحرية، ومقتل فارس الدين أقطاي على يد عز الدين أيبك، ثم مقتل عز الدين ايبك على يد غلمان زوجته شجر الدر، ومقتل شجر الدر نفسها على يد خدم ضرتها زوجة عز الدين أيبك، وأخيرا مقتل قطز على يد بيبرس البندقداري، كانت كل هذه الحوادث الدامية رسالة أخرى إلى أمثال شمس الدين البرنلي عن طبيعة النظام الوليد في مصر المملوكية ودليل عمل للتعامل مع معطياته. وفهم البرنلي الرسالة أيضا.

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا أن هذا الذي كان من "أكابر مماليك" العزيز غياث الدين[277]، والذي عاش قرابة ثلاثين سنة أو يزيد في بلاط العزيز ثم بلاط ابنه الناصر [278]،

---

[275] انظر سعيد عاشور، الأيوبيون والمماليك ، ص 193.

[276] المرجع السابق، ص 194.

[277] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 14.

[278] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 15.

وعرف بما جرى من أحداث في مصر عقب مقتل المعظم تورانشاه، بل وشارك في هذه الأحداث فعلا[279]، قد فطن إلى طبيعة عصره، وأدرك تماما أن بمقدوره الفوز بما تطمح إليه نفس كل من كان على شاكلته من مماليك كانت تموج بهم المنطقة آنذاك، وأن يتخذ لنفسه مكانا بين الأقوياء، رائده في ذلك طموح لا يحد ونفس لا تقنع، وعقل شديد الذكاء، وسبيله إلى ذلك التمرد على كل سيد، والخروج على كل سلطان والتملص من أي شكل من أشكال التبعية، ويشهد بذلك خروجه على الناصر في موقعة العباسة[280]، ثم تآمره علي قتل عز الدين أيبك الذي عاش في كنفه خمس سنوات في مصر [281]، وتخليه للمرة الثانية عن الناصر الذي أخرجه من السجن في سنة 658 هـ / 1260م ليستعين به في مواجهة المغول[282] وانضمامه إلى قطز[283]، ثم خروجه على بيبرس وتغلبه على حلب رغم إحسان بيبرس إليه[284]، وأخيرا انقلابه على بيبرس وتآمره مع سيف الدين الرشيدي وعز الدين الدمياطي على قتل بيبرس الذي بالغ في الإحسان إليه وإكرامه بل ومصادقته[285].

هذا هو البرنلي إذن باختصار: مملوك طموح ، متمرد، شديد الذكاء، دائم السعي إلى التغلب والتملك ما وجد إلى ذلك سبيلا.

البرنلي الثائر الطموح:

غير أن طريق شمس الدين البرنلي إلى تحقيق طموحاته لم يكن معبدا في أي وقت من الأوقات، خاصة وأن محور هذه الطموحات كان واحدة من أهم مدن الشام وهي حلب. وللبرنلي مع حلب قصة طويلة من الكر والفر، والتغلب عليها والخروج منها أمام قوات بيبرس. والمتابع لهذه الأحداث لابد وأن يخرج بنتيجة مؤداها أن نيابة حلب كانت حلما طالما راود شمس الدين آقوش البرنلي الذي عاش الجزء الأكبر من حياته بين ربوعها وفي بلاط سلاطينها.

والواقع أن البرنلي لم يألُ جهدا، ولم يدخر وسعا لتحقيق طموحه الكبير في أن يصبح نائبا معترفا به على حلب من قبل السلطان الشرعي للبلاد ، وهو ركن الدين

---

[279] بخروجه مع الناصر لقتال المصريين ، الحاشية السابقة.

[280] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 15.

[281] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 15.

[282] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 15.

[283] المقريزي، السلوك، ج 1، ص 518.

[284] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 17.

[285] أبو المحاسن، النجوم، ج 7، ص 117– 118.

بيبرس البندقداري، الذي وصل إلى السلطنة باغتياله سيف الدين قطز [286] رفيقه وقائده في محاربة المغول والسلطان الشرعي لبلاد. فقد حشد البرنلي كل إمكانياته من الدهاء والقوة والتآمر والدبلوماسية لتحقيق هدفه.

وترجع البدايات الأولى لمحاولة البرنلي التملك أو التغلب إلى زمن إقامته في دمشق التي نجح في استردادها من علم الدين سنجر وإعادتها إلى حظيرة الدولة المملوكية وسلطانها بيبرس[287]. فخروجه المريب منها هاربا في غسق الليل مع ثلة من المماليك[288] يوحي بأنه قد تآمر فعلا على بيبرس بعد أن حظي بثقته، خاصة وأن خروجه من دمشق جاء في أعقاب القبض على بهاء الدين بغدي الأشرفي [289]، وكأنما يصدق عليه قول القائل "يكاد المريب أن يقول خذوني".

وإذ تأكد للبرنلي أن التآمر وحده ليس يجدي، لجأ إلى القوة، ولكن يبدو أن تلك الشرذمة من المماليك الذين خرجوا معه من دمشق لم تكن كافية لتنفيذ مشروعه الكبير في التملك أو التغلب على مدينة كبيرة لم يفصح عن كنهها حتى الآن، فخرج يستعدي صاحبي حمص وحماة على بيبرس ويشجعهما على الانضمام إليه في ثورته[290]. ولما لم يجد منهما آذانا صاغية توجه إلى حلب بما معه من قوة يسيرة ووضع يده على بعض مؤنها[291] في أول إشارة إلى رغبته في التغلب على هذه المدينة المهمة. ولكن تلك القوة اليسيرة ألحقت الهزيمة بقوات علم الدين سنجر الذي كلفه

---

[286] المقريزي، السلوك، ج 1، ص 519.

[287] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 17؛ أبو الفدا، المختصر، ج 3، ص 210؛ ابن الوردي، ج 2، ص 205؛ العيني، ج 1، ص 291، وعن علاء الدين البندقداري انظر: أبو المحاسن، النجوم ، ج 7 ، ص 94 – 95.

[288] أبو الفدا، المختصر، ج 3، ص 210؛ ابن الوردي، ج 2، ص 205؛ العيني، ج 1، ص 292. انظر أيضا: Abou'l Feda, p.146

[289] أبو الفدا، ج 3 ، ص 210؛ ابن الوردي، ج 2، ص 205؛ العيني، ج 1، ص 291؛ ابن أيبك، الدرة الزكية، ص 72؛ ابن عبد الظاهر، ص 97.

[290] العيني، ج 1، ص 292.

[291] العيني، ج 1، ص 292؛ أبو الفدا، ج 3، ص 211؛ ابن الوردي،ج 2، ص 205؛ ابن عبد الظاهر: ص 97.

بيبرس بقمع تمرد البرنلي[292]. وكانت هذه هي المواجهة العسكرية الأولى بين البرنلي وقوات بيبرس.

الدهاء

جنى البرنلي الثمرة الحلوة التي كان يحلم بها فتوجه إلى حلب ليتغلب عليها. غير أنه واجه عقبة يسيرة تمثلت في وجود الأمير فخر الدين أيدمر الحلبى الحمصي في حلب على رأس جيش أرسله بيبرس لمواجهة غزو التتار [293]. ويبدو أن التفوق العددي كان في صالح الأمير فخر الدين، فتخلى البرنلي عن سياسة القوة، ولجأ إلى سياسة المكر والدهاء. فأقنع فخر الدين بالخروج من حلب والذهاب إلى بيبرس للتوسط لديه حتى يعينه، أي البرنلي، نائبا على حلب [294]. وبمجرد خروج فخر الدين من المدينة بسط البرنلى سيادته عليها[295]. وكما نجحت القوة العسكرية مع علم الدين سنجر، نجح المكر والدهاء مع فخر الدين الحمصي. وبات البرنلي متغلبا على حلب وعرف في التاريخ بهذا الاسم. وهكذا زاوج البرنلي بين القوة والدهاء والثورة والدبلوماسية حتى تحقق له ما كان يطمح إليه.

أصبح البرنلي إذن الآمر الناهي في حلب، وازداد قوة فازداد غرورا، ومن بعد حلب استولى على البيرة، ثم على حران، وصار يقرب من حلب ويبعد عنها خوفا من السلطان فيما يروي المقريزي[296]. وفي ذلك إشارة واضحة إلى الفرق بين الملك والتملك. فهو لم يملك المدينة بأمر سلطاني ، ولم يعين نائبا عليها من قبل بيبرس ، بل هو مجرد مغامر استولى على حلب قهرا، بالقوة والخديعة، وبسط سيادته عليها وفرض سطوته فيها دون سند شرعي. ومن هنا جاء إحساسه بهشاشة موقفه. فنراه في كل مناسبة يظهر الخضوع للسلطان ويرسل الرسل والوسطاء يستعطف بيبرس حتى يوافق على تعيينه نائبا له على حلب [297].

---

[292] النويري، ج 30، ص 44، ابن عبد الظاهر، ص 113.

[293] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 17؛ أبو الفدا، المختصر، ج 3، ص 211؛ ابن الوردي، ج 2، ص 205.

[294] العيني، ج 1، ص 292؛ النويري، ج 30، ص 40؛ أبو الفدا، المختصر، ج 3، ص 211؛ ابن الوردي، ج 2، ص205؛ اليونيني، ج 2، ص 104 – 105. الدرة الزكية، ص 72 ، انظر أيضا: Abou'l Feda, p. 148

[295] العيني، ج 1، ص 293؛ أبو الفدا، ج 3، ص 211، ابن الوردي، ج 2، ص 205.

[296] المقريزي، السلوك، ج 1 ص 539.

[297] ابن عبد الظاهر: 113 – 114؛ اليونيني، ج 2، ص 152؛ النويري، ج 30، ص 45.

ومن الغريب أن الضعف الذي كان البرنلي يظهره تجاه بيبرس كان دائما يكتسي ثوب القوة رغم حرصه الدائم على أن يظهر وهو في أوج قوته بمظهر المملوك الضعيف تجاه بيبرس. فكأنه كان يدرك بذكائه أن لقوته حدودا لا تتجاوزها، ولكنه كان مع ذلك يخاطب السلطان دائما من مركز قوة. فهاهو بعد انتصاره على قوات علم الدين سنجر واحتياله على فخر الدين الحمصي يلتمس من السلطان أن يعينه نائبا على حلب وهو متغلب عليها فعل [298]ا. ويتكرر المشهد عندما يخرج من حلب عند اقتراب القوة الضاربة التي أرسلها بيبرس لقمعه تحت قياد جمال الدين آقوش المحمدي، وعز الدين الدمياطي، وفخر الدين الحمصي. فهاهو الثائر المطارد يدخل على المحمدي في خيمته ويطلب منه أن يستعطف بيبرس ليبقيه نائبا على حران. فكيف لقائد مهزوم ومطارد أن يتحدث بهذه الثقة مع خصمه بل ويهدد باللجوء إلى المغول إن لم يكن يشعر أنه في مركز قوة؟ ولكنه مع ذلك لا يتخلى عن سياسة الدهاء والتملق والدبلوماسية فيستعطف بيبرس[299]. وكما فعل مع فخر الدين الحمصي فأخرجه بالحيلة من حلب وتغلب عليها، أقنع المحمدي الذي كان يجد في أثره ويطرده من كل مكان ينزل فيه بأن يتوسط له عند بيبرس، وما أن يرجع المحمدي إلى بيبرس حتى يستولي البرنلي على حران دون انتظار موافقة السلطان[300].

طبيعة الصراع بين البرنلي وبيبرس

وتصل الأمور بين البرنلي وبيبرس إلى منعطف خطير يسيطر على موقف الرجلين فيه مزيج من الخوف والرجاء ويلجم كلا منهما شك شديد في نوايا الآخر. فالبرنلي يخشى أن يقبض عليه بيبرس ويعتقله عقابا على محاولاته التملك والاستقلال. وبيبرس يخشى أن يمتد خطر البرنلي إلى النيابات الشامية الأخرى التي قد تشجعه على الانفصال عن دولة المماليك البحرية بمصر. وكلاهما يحدوه الرجاء في الفوز ببغيته: النيابة مع الخضوع الاسمي للسلطان الشرعي من جانب البرنلي؛ والإخضاع وقمع حركات التمرد التي واجهت بيبرس في مستهل حكمه والاطمئنان إلى عدم خروج البلاد الشامية عن السلطة المركزية للمماليك في مصر من جانب بيبرس. والرجلان من أكابر المماليك، هذا في بلاد الشام وذاك في مصر. وإذا كان الحظ - أو قانون القوة السائد والمتعارف عليه بين المماليك - قد ساعد بيبرس في التربع على عرش السلطنة، فقد كان من حق البرنلي من المنطلق نفسه - اعتمادا على

---

[298] انظر الحاشية السابقة.

[299] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 18.

[300] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 18؛ العيني: ج 2، ص 105؛ أبو الفدا، المختصر، ج 3، ص 211.

الحظ أو العرف - أن يطمح إلى التملك بل وإلى السلطنة ذاتها. ولكن الرجلين وصلا إلى ما وصلا إليه بالخديعة والقوة وفرض الأمر الواقع. وكان من الطبيعي أن يتشكك كل منهما في نوايا الآخر.

وتعددت الرسائل والمكاتبات بين البرنلي وبيبرس ، هذا يلتمس ويستعطف وهو ما زال متغلبا على حران والبيرة متجها إلى حلب [301]، وذاك يرغبه ويعطيه العهود والمواثيق على الوفاء [302] دون أن يثق أحدهما في صدق نوايا الآخر. ويعود البرنلي إلى التآمر، فيما يبدو، إذ يخرج عن طاعة علم الدين سنجر نائب حلب أكثر من كان معه وينضمون إلى البرنلي[303] الذي يرسل من يتسلم المدينة من هؤلاء[304].

المواجهة العسكرية الأخيرة والاعتراف بالأمر الواقع

هنا كان لابد من عمل عسكري كبير يحسم المسألة. فخرج بيبرس بنفسه على رأس قواته ودخل دمشق، وأرسل قائده بلبان الرشيدي لمقاتلة البرنلي [305]. وما حدث بعد ذلك كان غريبا. ومصدر الغرابة هنا يتمثل في واقعتين أثبتهما المؤرخون هما: أولا: أن بيبرس لم يتعلم الدرس الذي لقنه له البرنلي عندما خدع جمال الدين آقوش المحمدي الذي أرسله بيبرس لقمع تمرده. فكما خرج البرنلي من حلب عند اقتراب جمال الدين آقوش المحمدي، ومطاردته إياه، وبسط البرنلي سيادته على حران بالخديعة[306]، خرج البرنلي أيضا من حلب عند اقتراب جيش بلبان الرشيدي وطارده الرشيدي حتى أخرجه من حران أيضا [307]. ولكن لأسباب لم تذكرها المصادر عاد الرشيدي إلى مصر، كما أن المصادر لا تذكر شيئا عما كان من أمر قوات عز الدين الدمياطي وفخر الدين أيدمر التي أرسلها بيبرس مع الرشيدي، وكأنما مهمته كانت تنحصر في طرد البرنلي من حلب دون استراتيجية واضحة للحيلولة دون عودته للتغلب عليها، وهو ما حدث فعلا إذ عاد البرنلي إلى البيرة وبعث جماعة إلى حلب

---

[301] ابن عبد الظاهر، ص 113.

[302] النويري، ج 30، ص 59.

[303] المقريزي، السلوك، ج 1، ص 537؛ أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 18.

[304] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 18؛ العيني، ج 1، ص 310.

[305] ابن كثير، ج 13، ص 233؛ العيني، ج 1، ص311.

[306] العيني،ج 1، ص 292؛ النويري، ج 30، ص 40؛ أبو الفدا، المختصر، ج 3، ص 211؛ ابن الوردي، ج 2، ص205؛ اليونيني، ج 2، ص 104 – 105. انظر أيضا: Abou'l Feda, p. 148

[307] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ، ص 19.

ففر منها نائبها علاء الدين البندقداري ودخلها البرنلي [308]. فنحن هنا أمام صورة تتكرر بحذافيرها إن دلت على شيء فإنما تدل على التكتيك العسكري الذي كان يستخدمه البرنلي وهو تكتيك الكر والفر ، والخداع والقدرة على الإقناع. كما أن في ذلك دلالة واضحة على قوة البرنلي وإصراره على تحقيق هدفه.

ثانيا: أن قوة البرنلي كانت لا يستهان بها. والدليل على ذلك استيلاؤه عنوة على قلعة القرادي من المغول[309] ؛ بينما الرشيدي يجد في أثره ويطرده من حلب ثم من حران. فكيف للهارب المطارد أن يهاجم قلعة ويأخذها عنوة؟ وما حجم القوة اللازمة للاستيلاء على قلعة من المغول؟ إن المعنى الوحيد لذلك هو أن البرنلي كان على درجة من القوة تكفي لشن مثل هذا الهجوم . ويذكرنا هذا بما كان من أمر دخول البرنلي علي المحمدي في خيمته وحديثه معه حديث القائد القوي، رغم طلبه توسط المحمدي لدي بيبرس[310]. فالبرنلي لا يظهر قط في أي من المصادر التاريخية بمظهر الرجل الضعيف أو القائد المهزوم رغم تظاهره بالضعف للحصول على نيابة حلب أو غيرها.

هل كان البرنلي حريصا على الشرعية في الملك؟

تغلب البرنلي على حلب أذن. ولكنه أبى إلا أن يظهر دائما أمام السلطان بمظهر المملوك الضعيف الذي يلتمس رضاه ويعتذر عن تغلبه على حلب. فهو يدرك حدود قوته ولا يطلب إلا أن يكون نائبا من نواب بيبرس وإن كان ذلك لا ينفي أنه كان يتطلع إلى السلطنة بدليل تآمره فيما بعد مع سيف الدين الرشيدي وعز الدين الدمياطي على قتل بيبرس وتمليك البرنلى.

براعة البرنلي في استغلال الفرصة

والبرنلي إلى ذلك رجل تعلم كيف ينتهز كل فرصة تسنح له لإثبات وجوده وترسيخ صورته في الأذهان كحاكم قوي له قدره. فعندما بايع بيبرس الأمير العباسي أبا القاسم أحمد خليفة للمسلمين بالقاهرة ولقبه بالمستنصر وسط مظاهر من الحفاوة والأبهة بغية

---

[308] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 20.

[309] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ، ص 19.

[310] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 18.

توطيد أركان مملكته وإضفاء الطابع الشرعي على حكمه [311]، سارع البرنلي بمبايعة أبي العباس أحمد خليفة ولقبه بالحاكم بأمر الله[312]. صحيح أن مبايعة الحاكم هذا كانت أشبه بصورة باهتة لما جرى في مصر من مبايعة المستنصر، بدليل تنازل الحاكم عن الخلافة للمستنصر طواعية، ولكنها تنطوي على دلالة لا تخطئها العين تؤكد أن البرنلي إنما أراد بذلك إثبات وجوده من ناحية، واكتساب الشرعية لحكمه من هذا الخليفة الذي بايعه من ناحية أخرى.

وكانت الفرصة الثانية التي سارع البرنلي بانتهازها لتدعيم أسس مملكته هي استنجاد صاحب الموصل به لمواجهة المغول [313]. ومرة أخرى يجمع البرنلي بين الدبلوماسية والقوة ليثبت وجوده على الساحة . فهو يستأذن بيبرس قبل الخروج إلى الموصل[314]، ولكنه لا يلتزم بأوامره التي تقضي باتظار وصول القوات السلطانية من مصر والشام[315]. وقد يبرر ذلك بخوفه من أن تقبض عليه هذه القوات، ولكنه يثبت أيضا شجاعته في مواجهة المغول الذين كان اسمهم يبث الرعب في القلوب، ولولا معرفة المغول بالصدفة باقترابه [316]، وهبوب الرياح التي ألقت بالرمال في وجه جنوده[317]، فربما كان للبرنلي شأن آخر في حال انتصاره عليهم في هذه المعركة.

موقف البرنلي البطولي تجاه المغول:

كان للمغول دور بارز في حياة البرنلي. فقد كان خروجه مع سيف الدين قطز لقتال المغول في موقعة عين جالوت[318]، وانتصار قطز الباهر في هذه الموقعة، سببا في

---

[311] النويري ، ج 28، ص 18؛ المقريزي، السلوك، ج 1، ص 453 – 457؛ الذهبي، ج 2، ص 165، انظر أيضا: العبادي، قيام دولة المماليك، ص 184.

[312] الذهبي، ج 2، ص 165.

[313] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 20.

[314] أبو المحاسن، المنهل،ج 3، ص 20؛ النويري، ج 30، ص 45؛ ابن عبد الظاهر، 114. هذا بينما أورد ابن الفوطي أن بيبرس أرسل إلى الملك الصالح لنصرته "أميرا" اسمه اطهرلك في جماعة". انظر: ابن الفوطي، ص 167.

[315] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 20.

[316] رشيد الدين، م 2، ج 1، ص 328 – 329؛ ابن الفوطي، ص، 167.

[317] رشيد الدين، م 2، ج 1، ص 329.

[318] المقريزي، السلوك، ج 1، ص 518.

تولي البرنلي إمارة غزة والبلاد الساحلية، مكافأة له [319]. وكانت هذه هي أول إمارة يتولاها البرنلي منذ خروجه مع الناصر الأيوبي لمحاربة المصريين في سنة 648 هـ/ 1250م. وربما كانت تلك الإمارة هي التي فتحت شهيته وفجرت طموحاته إلى التملك.

كما كان انكساره أمام قوات المغول في سنجار [320] سببا في تخليه عن مشروعه الطموح للتغلب على حلب، بل وضياع حلب من يده نهائيا. والسبب في ذلك – في تقدير الباحث – فقدان البرنلي لجزء كبير من قواته في سنجار، وتخلي جزء آخر من العزيزية والصالحية عنه وتوجههم إلى مصر، بالإضافة إلى أن بيبرس كان قد عين علاء الدين البندقداري نائبا على حلب بعد خروج البرنلي منها متوجها إلى الموصل. وبين مقاتلة البرنلي للمغول في عين جالوت ومكافأته بإمارة غزة والساحل، ومقاتلته لهم في سنجار وضياع حلب منه نتيجة لذلك، كانت له معهم معارك ومناوشات أشارت إليها المصادر ربما كان أهمها طرده لهم من حران [321]، وان كانت المصادر لم تفصل القول في الملابسات والظروف التي أحاطت بذلك، ثم استيلاؤه على قلعة القرادي أثناء مطاردة بلبان الرشيدي له [322]،كما أنه حين توجه إلى البيرة واستولى عليها "جعل يشن الغارات على التتار الذين هم بشرقي الفرات، "ويكبس من يستفرده منهم"[323] فأظهر بذلك شجاعة فائقة.

إذن فقد كان البرنلي مقاتلا شرسا للمغول في أكثر من مناسبة. وإذا كانت ثمة شواهد على اتصاله بالمغول، أو تهديده بالاتصال بهم أو على أنه كان يثق فيهم على نحو ما جرى على لسانه من أنه يثق في وفاء هولاكو ولا يثق في وفاء السلطان (بيبرس)، فإن كل ذلك لم يتبلور في سياسات محددة أو إجراءات فعلية أقدم عليها البرنلي تدل على انحيازه الفعلي إلى المغول ضد المسلمين، بل إن رفضه التوجه إلى هولاكو بعد هزيمته في سنجار "ليقطع له البلاد من جهته"[324] يعد دليلا على الانتماء الإسلامي الحقيقي لهذا المتمرد الصعب الترويض. وبكل المقاييس، فإن أداءه كأمير

---

[319] أبو الفدا، ج 3، ص 206؛ المقريزي، السلوك، ج 1، ص 518؛ أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 16؛ ابن الوردي، ج 2، ص202 – 203؛ ابن شداد، ص 39، ح 1.

[320] تاريخ مختصر الدول، ص284.

[321] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 18.

[322] انظر ص 32 من هذا البحث.

[323] العيني، ج 1، ص 322.

[324] ابن أيبك، الدرة الزكية، ص 88.

مسلم يحارب المغول كان أكثر من ممتاز، يشهد بذلك انتصار عين جالوت في 658 هـ / 1260م، كما يشهد به حسن بلائه في سنجار وشدة قتاله للمغول حتى أنه سقط عن فرسه وانكسرت رجله[325]. ومجمل القول إن هذا الأمير الثائر قد قام بدوره كقائد مسلم في مواجهة التتار كأحسن ما يكون.

تأثير مصر في حياة البرنلي

وفد البرنلي إلى مصر ثلاث مرات. وكانت المرة الأولى حين انقلب على مولاه الملك الناصر في معركة العباسة سنة 648 هـ / 1250م وانضم إلى مماليك عز الدين أيبك فكان ذلك سببا في هزيمة الناصر [326] فدخل مصر مع القوات المصرية ولبث فيها حتى سنة 653هـ / 1255م عندما فر من مصر إثر مشاركته في التآمر على أيبك. ولا نعلم شيئا عن نشاطه في السنوات الخمس التي أمضاها في مصر من سنة 648 هـ / 1250م إلى 653 هـ / 1255م.

ثم جاء إلى مصر مرة ثانية فيما يروي المقريزي عندما فارق الناصر يوسف وسار إلى القاهرة فأكرمه السلطان (قطز) وخرج معه فشهد وقعة عين جالوت [327] التي جرت في رمضان سنة 658 هـ / سبتمبر 1260م. ومن الواضح أن إقامته في مصر هذه المرة لم تطل حيث كان الملك الناصر قد أخرجه من السجن في سنة 658 هـ / 1260م عندما اجتاح المغول بغداد ومدن الشام [328]. أي أنه جاء إلى مصر وخرج منها مع قطز إلى عين جالوت في نفس العام.

وكانت المرة الثالثة التي نزل فيها البرنلي مصر في غرة ذي الحجة سنة 660 هـ / 1261م عندما طلب الأمان من بيبرس بعد انكساره في سنجار ومفارقة أكثر العزيزية له. وأجابه بيبرس وطلبه إلى الديار المصرية وأكرمه وأنعم عليه بإمرة سبعين فارسا[329] . وبعد ثمانية أشهر تقريبا، قبض عليه بيبرس في التاسع عشر من

---

[325] النويري، ج 30، ص 45؛ أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 21.

[326] المقريزي، السلوك، ج1 ص 468؛ أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 15؛ ابن الوردي، ج 2، ص 180 – 181.

[327] المقريزي، السلوك، ج 1، ص 518.

[328] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 15.

[329] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 21.

رجب سنة 661 هـ / 1262م لتآمره مع سيف الدين الرشيدي وعز الدين الدمياطي على قتله[330] وأمضي بقية حياته في السجن حيث مات في سنة 668 هـ / 1270م[331].

ونخلص من هذا العرض لإقامة البرنلي في مصر إلى أنه دخلها مؤيدا لعز الدين أيبك وخرج منها بعد خمس سنوات هاربا منه بعد أن تآمر عليه، ثم دخلها مؤيدا لقطز وخرج معه تحت لوائه مقاتلا في عين جالوت، ثم دخلها للمرة الثالثة متمتعا بأمان وإكرام بيبرس ولكنه لم يخرج منها هذه المرة بل سجن فيها إلى أن مات بعد سبع سنوات عقابا على تآمره على بيبرس. ويؤكد سلوك البرنلي في مصر طموحه الدائم إلى السلطة والتملك ضاربا في ذلك عرض الحائط بكل الاعتبارات.

خاتمة

كان الأمير شمس الدين آقوش البرنلي تعبيرا صادقا عن العصر الذي عاش فيه، وهو عصر زوال ملك الأيوبيين الذين ساد بينهم الانقسام واعتمدوا في توطيد أركان دولهم أو دويلاتهم على الإكثار من جلب المماليك، وقيام دولة المماليك البحرية في مصر وما واجهته هذه الدولة من عقبات وما صاحب قيامها من تآمر واقتتال داخلي. وفطن البرنلي بذكائه الشديد إلى أنه لن يصل إلى المكانة اللائقة به كواحد من "أكابر" مماليك الملك العزيز غياث الدين الأيوبي إلا إذا سلك مسلك أمراء الأيوبيين ثم أمراء المماليك من بعدهم، وهو مسلك يعتمد على الجمع بين القوة العسكرية والدهاء والدبلوماسية لتحقيق الأهداف بغض النظر عن القيم والتقاليد، والمباح والمحظور من أمور الدنيا والدين. وكان التمرد هو السمة الغالبة على هذا الأمير. فقد بدأ حياته العملية، أو على الأقل ذلك الجزء من حياته العملية الذي اهتمت به المصادر الإسلامية، بالتمرد علي مولاه الملك الناصر يوسف الأيوبي وأنهاها بالتمرد والتآمر على السلطان الظاهر بيبرس البندقداري الذي أحسن إليه كل الإحسان وأكرمه فبالغ في إكرامه. وما بين تمرده الأول وتمرده الأخير كانت حياة البرنلي تطلعا دائما إلى السلطة والتملك سواء بوضع اليد، أو بالتآمر على السلطان الشرعي للبلاد. واهتم البرنلي اهتماما خاصا بحلب. وبذل وقتا وجهدا كبيرين لتحقيق حلم طالما راوده بأن يصبح نائبا معترفا به على هذه المدينة المهمة. وسواء كانت أهمية حلب في نظر البرنلي ترجع إلى أهميتها الاستراتيجية أو الاقتصادية، أو إلى نشأته في ربوعها وقضائه قرابة ثلاثين سنة في بلاط سلاطينها،أو انتسابه إلى المماليك العزيزية في

---

[330] المقريزي، السلوك، ج 1، ص557؛ أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص21.

[331] أبو المحاسن، المنهل، ج 3، ص 21.

هذه المدينة، أو إلى نزوع البرنلي الملحوظ إلى الاتجاه شمالا في تحركاته - بين حلب والبيرة وحران - فقد بقيت حلب على الدوام تمثل حلمه المستحيل الذي لم ينعم بتحقيقه إلا لأربعة أشهر فيما يروي المقريزي.

وكان دوره في محاربة المغول من العلامات الفارقة في تاريخ الصراع الإسلامي المغولي فهو المساهم مرة في تحقيق انتصار عين جالوت، وهو المتسبب مرة أخرى في تسجيل واحدة من الهزائم الفادحة بالمسلمين في سنجار ومن بعدها الموصل. وهو في الحالتين دور يحسب له لا عليه فقد أبلى كأفضل ما يكون البلاء في المرتين، فضلا عن مناوشاته المتكررة للتتار وانتزاعه بعض المواقع المهمة منهم كحران وقلعة القرادي.

أما في مصر فلا يمكن القول بأن البرنلي قد ترك ذكرى طيبة. ففي المرتين اللتين طالت إقامته بمصر فيهما تآمر على سلطان البلاد. فخرج في المرة الأولى هاربا – بعد خمس سنوات من الإقامة في هذا البلد - بعد أن اكتشف عز الدين أيبك تآمره والعزيزية عليه. وفي المرة الثانية قبض عليه بيبرس – بعد أقل من عام من استقباله له وإكرام وفادته بمصر - إثر اكتشاف تآمره مع سيف الدين الرشيدي وعز الدين الدمياطي علي التخلص من بيبرس وتمليك البرنلي نفسه.

وعلى كل حال، فإن الحكم على شخصية البرنلي من خلال ما نسبه إليه المؤرخون من أعمال ليس بالأمر الهين. يصدق عليه ذلك كما يصدق على سائر أمراء بل وسلاطين المماليك. فأعظم المماليك شأنا وأنصعهم صورة ، كقطز قاهر المغول، وبيبرس الذي يرجع إليه الفضل في توطيد أركان دولة المماليك والنهوض بها، لم تكن أيديهم بريئة من دماء منافسيهم وخصومهم. فقطز كانت يده ملوثة بدماء فارس الدين أقطاي العدو الأكبر لعز الدين ايبك، وبيبرس كانت يداه ملطختين بدم قطز بطل عين جالوت، وعندما سأل أقطاي المستعرب أتابك قطز عمن قتل قطز، وأجاب بيبرس: " أنا قتلته"، قال الأمير أقطاي: "يا خوند! اجلس في مرتبة السلطنة مكانه" فجلس بيبرس وبايعه أقطاي والأمراء[332]. فهكذا كان قانون المماليك: من قتل الملك فهو الملك، لا يعيبه ذلك في شيء فالمؤرخون يلتزمون الحياد التام في أحكامهم على سلاطين المماليك، ولا يخلطون بين سفكهم لدماء خصومهم وإنجازاتهم العظيمة من أجل دولة الإسلام. فإذا وضعنا في الاعتبار أن البرنلي لم يثبت عليه في وقت من الأوقات أنه قتل خصومه أو منافسيه من اجل الوصول إلى الحكم، وأن جل اهتمامه

---

[332] المقريزي، السلوك، ج 1، ص 520 ، والخوند معربة عن الفارسية وتعني السيد العظيم أو الأمير . انظر زين العابدين شمس الدين نجم، معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية، الزهراء كمبيوتر سنتر، ص 228، القاهرة، 2005.

كان ينصب على النيابة أو التملك، تبين لنا أنه كان يفوق أقرانه المماليك بمراحل في سلوكهم الدموي وفتكهم بخصومهم. ولم يكن تطلعه إلى الملك يشكل جرما في نظره ونظر اتباعه بل وربما في نظر بعض خصومه. فالتهافت على السلطة كان سمة العصر، ولم يكن البرنلي إلا إفرازا لعصره شانه في ذلك شأن سيف الدين قطز أو ركن الدين بيبرس البندقداري، وأن اختلفت أقدارهم وتباينت مصائرهم.

مراجع البحث
أولا : المصادر

ابن أبى الفضائل (توفي في منتصف القرن الثامن هـ / منتصف القرن الرابع عشر م) مفضل:
النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، تحقيق بلوشيه E. Blochet في 1911, Paris, XII-XIV, t. P.O., 1913–.

ابن الأثير الجزرى (ت 630 هـ/ 1232م)أبو الحسن بن أبي المكارم الملقب عز الدين:
الكامل في التاريخ، بيروت 1987

ابن أيبك (ت 732هـ / 1331م) أبو بكر بن عبد الله:
1- الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب - تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور - القاهرة 1972م
2- الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية - تحقيق أولرخ هارمان - القاهرة 1971م
3- كنز الدرر وجامع الغرر - ج 8 – تحقيق أولرخ هارمن – القاهرة 1971م

ابن إياس (ت 930هـ / 1533م) أبو البركات أحمد محمد بن أحمد:
بدائع الزهور في وقائع الدهور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1403هـ/1983م

ابن بهادر (عاش في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي)
محمد بن محمد بن بهادر
فتوح النصر في تاريخ ملوك مصر – مخطوط بدار الكتب المصرية – رقم 4977 تاريخ – جزءان – ج 1، ورقة 109

ابن حبيب (ت 779هـ / 1377م) الحسن بن عمر بن الحسن بن حبيب
تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه – ج 1 ، نشر وتحقيق محمد محمد أمين - القاهرة 1976

ابن حجر العسقلاني (ت 852هـ / 1448م) شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد:
الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة – تحقيق محمد سيد جاد الحق – 5 أجزاء – القاهرة 1966

ابن زنبل (توفي بعد 960 هـ/1553م) الشيخ أحمد بن زنبل الرمال:
آخرة المماليك أو واقعة السلطان الغوري مع سليم الثماني – تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة، 1998

ابن شاهين (ت 872هـ / 1467- 8 م) غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري:
كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك – عني بنشره وتصحيحه بولس راوس- باريس 1894م

ابن شداد (ت 684هـ / 1285م) عز الدين محمد بن على بن إبراهيم:
تاريخ الملك الظاهر - تحقيق أحمد حطيط - فيسبادن 1983م

ابن العبري (ت 685هـ / 1286م) غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون الملطي:
1- تاريخ مختصر الدول، بيروت، 1890
2- تاريخ الزمان – ترجمة إسحق أرملة – بيروت 1986

ابن عبد الظاهر (ت 692هـ / 1292م) محيي الدين:
الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق الدكتور عبد العزيز خويطر، الرياض، 1976

ابن العماد الحنبلي (ت 1089هـ / 1679م) أبو الفلاح عبد الحي بن يحيي بن محمد:
شذرات الذهب في أخبار من ذهب – 10 أجزاء – القاهرة 1340 – 1351 هـ

ابن الفوطي (ت 733هـ / 1331م) عبد الرازق بن أحمد الفوطي البغدادي
الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السايعة، نشر مصطفى جواد، بغداد، 1932/1351

ابن كثير (ت 794هـ / 1373م) عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر
البداية والنهاية في التاريخ، 14 جزءا، القاهرة، 1351- 1358 هـ

ابن منظور (ت 711هـ / 1311م) جمال الدين أبو الفضل محمد:
لسان العرب - طبعة دار المعارف، القاهرة، 1979، 6 مجلدات، المجلد الخامس

ابن الوردي (ت 749هـ / 1349م) أبو حفص زين الدين عمر بن مظفر بن عمر:
تتمة المختصر في أخبار البشر – ويعرف بتاريخ ابن الوردي – 2 ج ، القاهرة، 1258هـ/1868م

أبو شامة (ت 685هـ / 1267م) عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان شهاب الدين:

ذيل كتاب الروضتين، تحقيق عزت العطار الحسيني الدمشقي بعنوان "تراجم رجال القرنين السادس والسابع"، القاهرة، 1947.

أبو الفداء (ت 732هـ / 1331م) الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن على:

1-المختصر في أخبار البشر، 4 أجزاء، الآستانة، 1286هـ

2- Aboul Feda, in R. H. C. H. OR, t. I, Paris

3- تقويم البلدان – نشره رينو ودي سلان – باريس 1840

أبو المحاسن (ت 874هـ / 1496م) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي :

1- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985

2- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة – 12 جزءا – القاهرة، 1929-1956

3- الدليل الشافي على المنهل الصافي – تحقيق فهيم محمد شلتوت ، طبع جامعة أم القرى، 1983م

الأصطخري (توفي في القرن الرابع الهجري / القرن العاشر الميلادي)

أبو إسحق إبراهيم محمد بن محمد الفارسي المعروف بالكرخي:

مسالك الممالك – نشر دي غويه – ليدن 1346هـ / 1927م

البغدادي (ت 739هـ / 1338م) صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق:

مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع – تحقيق على محمد البجاوي – القاهرة 1954

الذهبى (ت 748هـ / 1248م) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان قايماز شمس الدين:

كتاب دول الإسلام، دار إحياء التراث الإسلامي بدولة قطر الجزء الأول والثاني، 1988

السيوطي (ت 911هـ / 1505م) عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين:

تاريخ الخلفاء، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، د ت

الصفاعي (عاش في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي) فضل الله بن أبي الفخر:
تالي كتاب وفيات الأعيان – تحقيق دومينيك سورديل – باريس 1985

العيني (ت 855هـ / 1451م) بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى:
عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، مخطوط بمكتبة دار الكتب المصرية رقم 1584، 49/10 – تحقيق محمد محمد أمين _ ج 1، القاهرة 1987-1988م

القرماني (ت 1019هـ / 1611م) أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد:
أخبار الدول وآثار الأول – بيروت 1969م

القلقشندي (ت 821هـ / 1418م) احمد بن على بن احمد بن عبد الله:
1 - صبح الأعشى في صناعة الإنشا، 14 جزءا، القاهرة، 1913-1920م)
2 - نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب - مكتبة التراث الإسلامي بموقع نداء الإيمان على الإنترنت www.al-eman.com

الكتبي (ت 764هـ / 1363م) محمد بن شاكر بن أحمد سيد عبد الرحمن فخر الدين:
فوات الوفيات، جزءان، بولاق، 1299 هـ

المقريزي (ت 845هـ / 1442م) تقي الدين أبو العباس أحمد:
1 - السلوك لمعرفة دول الملوك، ج 1 – تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة 1957م ، والجزء الأول في طبعة دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1418هـ/1997
2 - التاريخ الكبير المقفى في تراجم أهل مصر _والواردين إليها – ترجمة أقِش البرلي العزيزي، الأمير شمس الدين – مخطوط ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية – رقم 510

3 - كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار - جزءان - بولاق، 1270 هـ/ 1853م، وطبعة دار صادر، بيروت، ج 1

المكين جرجس: (ت 672هـ / 1274م) جرجس أبو عبد الله بن أبي اليسر الملقب بالمكين:
أخبار الأيوبيين - مكتبة الثقافة الدينية د.ت.

النويرى الكندى: (ت 732هـ / 1332م) شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب:
نهاية الأرب في فنون الأدب، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 549 – تحقيق محمد عبد الهادي شعيرة – ج 30 – القاهرة 1990م

اليونينى: (ت 726هـ / 1326م) قطب الدين موسى بن محمد:
ذيل مرآة الزمان، 4 أجزاء، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند 1380هـ / 1960م

بيبرس الدوادار: (ت 725هـ / 1352م) الأمير ركن الدين بيبرس المنصوري:
1- التحفة الملوكية في الدولة التركية - تحقيق عبد الحميد صالح حمدان - بيروت 1987
2- زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة – تحقيق زبيدة محمد عطا ، الرياض - د.ت.

رشيد الدين: (ت 718هـ / 1318م) فضل الله بن عماد الدولة أبي الخير بن موفق الدولة:
جامع التواريخ، المجلد الثاني – نقله عن الفارسية الدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد وآخرون – القاهرة 1960م

شافع بن علي: (ت 733هـ / 1332م) شافع بن على بن عباس بن إسماعيل بن عساكر الكنانى العسقلاني المصري:
حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية – تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض 1979م

ياقوت الرومى الحموي: (ت 626هـ / 1228م) أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الملقب شهاب الدين:
معجم البلدان، 4 أجزاء، بيروت 1968، وطبعة القاهرة، 1906

ثانيا: المراجع العربية والمعربة

أحمد عبد الرازق: الرنوك الإسلامية - القاهرة 2001م

أحمد مختار العبادي: 1- قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2006، ص 119

2- في التاريخ الأيوبي والمملوكي – الإسكندرية 1992م

السيد الباز العريني: المماليك، دار النهضة العربية، بيروت – لبنان، دون تاريخ

جوزيف نسيم يوسف العدوان الصليبي على مصر ، الإسكندرية، دار الكتب الجامعية، 1969، ص 38.

حامد غنيم: الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية ، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1973- الجزء الثالث

حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام ، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 1987

حلمي محمد سالم: علاقات مصر الخارجية في عهد السلطان الظاهر برقوق – الإسكندرية 1976

زين العابدين شمس الدين نجم : معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية ، الزهراء كمبيوتر سنتر، القاهرة، 2005

ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العريني، بيروت، الطبعة الثالثة، الجزء الثالث، 1993

سعيد عبد الفتاح عاشور : 1- الأيوبيون والمماليك في مصر والشام ، دار النهضة العربية، القاهرة، دون تاريخ، ص 202

2- الظاهر بيبرس ، الهيئة المصرية العامة للكتاب 2001

عصام محمد شبارو: السلاطين في المشرق العربي ، معالم دورهم السياسي والحضاري، السلاجقة - الأيوبيين، دار النهضة العربية، بيروت 1994

فايز نجيب اسكندر: السلطان المملوكي الأشرف خليل بن قلاوون وفتح قلعة المسلمين، الاسكندرية ، 1999

فؤاد عبد المعطي الصياد: المغول في التاريخ، دار النهضة العربية، بيروت، 1980

كليفورد بوزورث: الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، دراسة في التاريخ والأنساب، ترجمة حسين على اللبودي، مؤسسة الشراع العربي، الكويت، 1994، ص 103

محاسن الوقاد: مصر في العصر المملوكي – دراسات حضارية ، مصر العربية للنشر والتوزيع، 2006

ثالثا: المراجع الأجنبية

Abou'L Feda, in R.H.C., Hist. Or., T. I

Boyle, J. A. : Cambridge History of Persia, Cambridge, 1968, t. V, pp.351 352

D'Ohsson, Histoire des Mongols Depuis Tchinguis - Khan Jusqu a Timour Bey Ou Tamerlan 4 Vols, Amsterdam, 1852 t. III

Dussaut, R.: Topographie Historique De La Syrie Antique Et Médiéval, Paris, 1924

Encyclopedia of Islam, Art. Ayn Djalut, t. I, p. 810;

Gestes des Chiprois, dans R. H. G. S., Doc Arm, t. ii, p. 841, N. D.

Grousset, R.: L'Empire; Des Steppes, Paris, 1939

Howorth: History of the Mongols, London, 1975, t. III